

فهرس رسالة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * (سورة الروم ٣٠ : ٣٠ — ٣٢)

إن الله جلت قدرته ، وبلغت حكمته ، قد برأ هذا الانسان ، بفطرة أعلى من فطرة سائر أنواع الحيوان ، أودع فيه شعوراً بلذات وآلام غير جسدية ، فكان له بذلك حياة غير الحياة الحيوانية ، انشأه مستعداً لإدراك معلومات غير محصورة ، اذ خلقه ليحيا حياة غير محدودة ، جعل مدار حياته على التعاون والاجتماع ، ليستعين بذلك على استجلاء ما في الكون من النظام والابداع ، أنشأ افراده متفاوتين في الاستعداد للعلوم والأعمال ، ليتيسر لمجموع النوع القيام بجميع العلوم والاعمال ، فأدناهم الخدم والبناؤن والزارعون ، وأعلاهم الساسة والحكماء فالانبياء والمرسلون ، فهؤلاء كالعقول والقلوب والارواح ، وأولئك

كالأرجل والايدي والمعدوالامعاء ، فمنهم من يقوم للنوع بأدنى مايحتاج اليه ، ومنهم من يهديه الى أعلى ما يتشوف استعداده إليه ' مع احسانه التصرف فيما هو قائم عليه ، وهذه الهداية هي هداية الدين الذي هو قوام الفطرة للانسان ، الناهض بها الى طلب الكمال في العلوم والاعمال '

سار الدين بتكميل الفطرة البشرية على منهاج التدريج في الارتقاء ، كما هي السنة العامة في جميع شؤون الاحياء ' حتى جاء خاتم النبيين والمرسلين بالاسلام ' الذي بلغ بالانسان مرتبة الاستقلال التام ، و بين كتابه انه دين الفطرة للناس ' من جميع الشعوب والاجناس ، الموافق لهم في كل مكان ، المنطبق على مصالحهم في كل زمان ' فهو للقبائل الساذجة كالمربي الرحيم ' وللشعوب الراقية كالامام الحكيم ' كلماساروا في العلوم والمدنية شوطا رأوه المجلي في ميدان السبق ' ٤١:٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق '

لكن اكثر المسلمين قد خذلوا هذا الدين ، وصاروا حجة عليه عند اكثر العالمين ، اذ زينت لهم التقاليد والعادات ، ان يجعلوه حجابا دون العلوم والفنون والصناعات ، وان يتفرقوا فيه مذاهب وشيعا ، و ينقصوا منه سننا و يزيدوا عليه بدعا ، وان يجعلوا كتب العقائد ملأى بالجدل والمراء ، بين اهل المذاهب من الاموات والاحياء ' وقد مرت القرون وليس عندنا مصنف يصلح للدعوة الى الاسلام ، على الوجه الذي اشترطه علماء الكلام ' وهو ان يكون على وجه يحرك الى النظر ' و يدعو الى البحث

والتفكر ، حتى قام الاستاذ الامام ، الذي كان في هذا العصر حجة الاسلام ، الشيخ محمد عبده قدس الله روحه في دار السلام ، فكتب (رسالة التوحيد) في بيان حقيقة هذا الدين ، فجاء مع التزام الشرط بما لم يأت بمثله أحد من أئمة المسلمين ،

لا اذكر في بيان فضل هذه الرسالة ان مجلس ادارة الازهر قرر تدريسها في الجامع الازهر رسميا، ولا ان علماء الهند ترجموها بلغة الاوردو ليدرسوها في مدرسة عليكده الكلية وغيرها ، ولا ان علماء الاقطار الذين اطلعوا عليها قد كتبوا لمؤلفها من منثور الثناء ومنظومه ما يزيد على حجمها اضعافا مضاعفة، ولا ان بعض علماء النصارى قالوا عند ماقرءوها: لوكان مافي هذه الرسالة هو الاسلام لكنا اول من يدخل فيه، ولكنها حكمة الشيخ محمد عبده الذي نؤمن بفضله، وعلو كعبه ، لا أشرح هنا شيئا من مثل هذا وانما أقول انه لا يقدر هذه الرسالة حق قدرها الا من كان عالما بمنتهى ما وصل اليه علم الكلام ، من الارتقاء في الاسلام، وواقفا على ملة كتبه فلاسفة أوربا في الانتقاد على الاديان، مع ما كتبوه في بيان مزاياها وفي علم النفس وعلم الاخلاق وعلم الاجتماع البشري

لم تدع الرسالة شبهة على الدين الا وكشفتها ، ولا عقدة من عقد المشكلات الا وحلتها ، ولكن الشبه تذكر فيها غالبا بطريق الايماء والتلويح، دون الابانة والتصريح، وذلك أدنى ان لا يشك الضعيف ، ولا يشتغل القوي عن المقصد الشريف ، وقد أشار الى ذلك المصنف في قوله « راميا

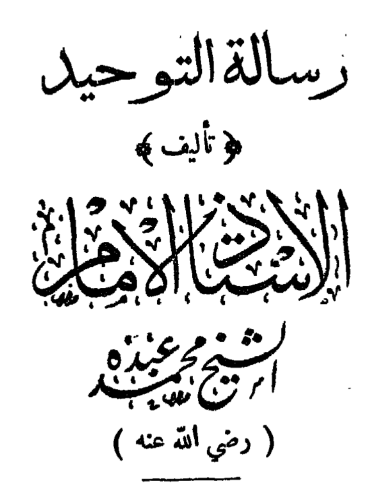
الى الخلاف من مكان بعيد ، حتى ربما لا يدركه الا الرجل الرشيد »

كتب الاستاذ الامام هذه الرسالة في مدة قليلة و بادر إلى طبعها فلما قرأها في الجامع الازهر على الالوف من العلماء ونجباء الطلاب ظهر له فيها أغلاط لغوية ومسائل تحتاج الى إيضاح وكلم جدير بالحذف فكان يكتب ما يراه من التنقيح في النسخة التي يقرأ بها الدرس ويزيد ما يزيد في هامشها ، وقد انتقد عليه الشيخ محمد محمود الشنقيطي (رحمهما الله) ذكره لمسألة خلق القرآن لانها مخالفة لشرطه في التزام مذهب السلف فأمر بحذف ذلك منها (راجع ص ٣٧ منها) وانتقد عليه حروفا أخرى فأقنعه في بعضها واقتنع منه في بعض . وقد جمع جميع ما صححه في جدول فكان ذلك في سبعين موضعا أو أكثر . و بقي فيها كلمات نادرة قدسها المؤلف عنها مع تصحيحه لمثلها ، فأبقيتها على أصلها ، ولم أزد فيها من عندي الا عدد السور والآيات

ولما كتب الي صديقي حموده بك عبده يأذن لي بإعادة طبع الرسالة اعطاني الجدول فصححت هذه الطبعة معارضة عليه وعلى نسخة المؤلف . وعلقت عليها هوامش قليلة سمعت بعضها منه في الدرس ، ولولا انه نهى عن شرحها ، ووضع الحواشي لها ، لجاز لي أن اكثر من هذه الهوامش ، ولكن ماراه رحمه الله هو الصواب ، وما جاء به هو الحكمة وفصل الخطاب ، فهذه الطبعة هي المعتمدة وعليها المعول ولا يستغني عنها من طالع الطبعة الاولى فرحم الله الاستاذ الامام ، ونفع برسالته الأنام ، آمين (محمد رشيد رضا الحسيني)

رسالة التوحيد

﴿ تأليف ﴾



(رضي الله عنه)

طبعها باذن الورثة مصححا إياها على نسخة المؤلف وجدول وضعه لتصحيحها
ومعلقا عليها هوامش استفاد بعضها منه في الدرس



منشئ مجلة المنار

﴿ الطبعة الثانية ﴾

بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر سنة ١٣٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

٢ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٣ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ٤ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٥ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٦ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٧ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

﴿ وبعد ﴾ فلما كنت في بيروت من اعمال سوريا أيام بعدي عن مصر عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية ودعيت في سنة ١٣٠٣ه الى تدريس بعض العلوم في المدرسة السلطانية ومنها كان علم التوحيد رأيت ان المختصرات في هذا الفن ربما لا تأتي على الغرض من افادة التلامذة، والمطولات تعلو على افهامهم ، والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم ،فرأيت من الاليق أن أملي عليهم ماهو أمس بحالهم، فكانت أمالي مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم، أقربها الى كفاية الطالب ماأملي على الفرقة الاولى في اسلوب لا يصعب تناوله، وان لم يعهد تداوله ، : تمهيد مقدمات وسير منها الى المطالب من غير نظر الا الى صحة الدليل،وان

جاء في التعبير على خلاف ماعهد من هيئة التأليف ، راميا الى الخلاف من مكان بعيد ، حتى ربما لا يدركه الا الرجل الرشيد، غير ان تلك الامالي لم تحفظ الا في دفاتر التلامذة ولم أستبق لنفسي منها شيئاً. وعرض بعد ذلك ما استقدمني الى مصر وكان من تقدير الله أن أشتغل بغير التعليم ، حتى أتى النسيان على ما أمليت ، وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت ، الى أن خطر لي من مدة أشهر خاطر العود إلى ما تهواه نفسي ، ويصبو اليه عقلي وحسي ، وأن أشغل أوقات فراغي بمدارسة شيء من علم التوحيد، علماً مني أنه ركن العلم الشديد، فذكرت سابق العمل ، وتعلق بمثله الامل، وعزمت أن أكتب إلى بعض التلامذة ليرسل إليّ ما تلقاه بين يديّ ، لكيلا أنفق من الزمن ما أنا في أشد الحاجة اليه، في انشاء ما أرى التعويل عليه، وذكرت ذلك لأخي(١) فأخبرني أنه نسخ ما أمليَ على الفرقة الأولى فطلبته وقرأته فاذا هو قريب مما أحب ، قد يحتاج اليه القاصر ، وربما لا يستغني عنه المكاثر، على اختصار فيه مقصود ، ووقوف عند حدّ من القول محدود، قد سلك في العقائد مسلك السلف، ولم يعبأ في سيره آراء الخلف، وبعُد عن الخلاف بين المذاهب، بعد مميله عن أعاصير المشاغب ، لكن وجدت فيه ايجازاً في بعض المواضع ، ربما لا ينفذ منه ذهن المطالع ، وإغفالاً لبعض ما تمس الحاجة اليه ، وزيادة عما يجب في مختصر مثله أن يقتصر عليه ،

(١) هو حموده بك عبده وكان تلميذاً في المدرسة السلطانية لذلك العهد

فبسطت بعض عباراته، وحررت ما غمض من مقدماته، وزدت ما أغفل، وحذفت ما فضل، وتوكلت على الله في نشره، راجياً أن لا يكون في قصره ما يحمل على إغفال أمره، أو يغض من قدره، فما من أحد بدون أن يعين ولا بفوق أن يعان، والله وحده ولي الأمر وهو المستعان،

مقدمات

التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب ان يثبت له من صفات، وما يجوز ان يوصف به وما يجب ان ينفى عنه، وعن الرسل لإثبات رسالتهم، وما يجب ان يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب اليهم، وما يمتنع ان يلحق بهم،

أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له وسمي هذا العلم به تسمية لهم بأهم أجزائه وهو اثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الاكوان وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد . وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز وسيأتي بيانه . وقد يسمى علم الكلام إما لان أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هي أن كلام الله المتلو حادث او قديم ، وإما لان مبناه الدليل العقلي وأثره

يظهر من كل متكلم في كلامه وقلما يرجع فيه الى النقل اللهم الا بعد تقرير الاصول الاولى، ثم الانتقال منها، الى ماهو أشبه بالفرع عنها، وان كان أصلا لما يأتي بعدها ، وإما لانه في بيان طرق الاستدلال على أصول الدين اشبه بالمنطق في تبيينه مسالك الحجة في غلوم أهل النظر وابدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما

* * *

هذا النوع من العلم علم تقرير العقائد وبيان ماجاء في النبوّات كان معروفاً عند الأمم قبل الإسلام ففي كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك لكنهم كانوا قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي و بناء آرائهم وعقائدهم على ما في طبيعة الوجود أوما يشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع العقول في العلم ومضارب الدين في الالزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفي نقيض وكثيراً ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدوّ العقل نتائجه ومقدماته فكان جل مافي علوم الكلام تأويل وتفسير، وادهاش بالمعجزات ، أو إلهاء بالخيالات ، يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية

جاء القرآن فنهج بالدين منهجاً لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة ـ منهجاً يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه ولمن يأتي بعدهم أن يقوموا غليه ، فلم يقصر الاستدلال على نبوّة النبي صلى الله عليه وسلم بما عهد

الاستدلال به على النبوّات السابقة بل جعل الدليل في حال النبي مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو في مثل أقصر سورة منه، وقص علينا من صفات الله ما أذن الله لنا أو ما اوجب علينا ان نعلم، لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ولكنه أقام الدعوى وبرهن، وحكى مذاهب المخالفين وكرّ عليها بالحجة وخاطب العقل واستنهض الفكر، وعرض نظام الاكوان، وما فيها من الاحكام والاتقان، على أنظار العقول وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك الى اليقين بصحة ما ادّعاه ودعا اليه حتى انه في سياق قصص أحوال السابقين كان يقرّر أن للخلق سنة لا تغير وقاعدة لا تتبدل فقال (٤٨: ٣٢ سُنَّةَ اللهِ التي قد خلَت من قَبْلُ وَلن تجدَ لسنّةِ اللهِ تبديلا) وصرح (١٣: ١١ ان الله لا يُغيّرُ ما بقوم حتى يُغيّرُوا ما بِأنفسِهم ٣٠: ٣٠ فِطرةَ الله التي فطرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلق الله) واعتضد بالدليل حتى في باب الادب فقال (٤١: ٣٤ ادْفَعْ بالتي هيَ أحْسنُ فإذَا الَّذي بينكَ وبينهُ عَداوةٌ كأنه وَليٌّ حَميمٌ) وتآخى العقل والدين لأوّل مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل بتصريح لا يقبل التأويل. وتقرر بين المسلمين كافة الا من لا ثقة بعقله ولا بدينه أن من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل وعلمه بما يوحي به اليهم وارادته لاختصاصهم برسالته

وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها كما أجمعوا على ان الدين ان جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن ان يأتي بما يستحيل عند العقل

جاء القرآن يصف الله بصفات — وان كانت اقرب الى التنزيه مما وصف به في مخاطبات الاجيال السابقة — فمن صفات البشر مايشاركها في الاسم او في الجنس(١) كالقدرة والاختيار والسمع والبصر وعزا اليه أمورا يوجد مايشبهها في الانسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين ثم أفاض في القضاء السابق وفي الاختيار الممنوح للانسان وجادل الغالين من أهل المذهبين ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيآت ووكل الامر في الثواب والعقاب إلى مشيئة الله وأمثال ذلك مما لا حاجة إلى بيانه في هذه المقدمة . فاعتبار حكم العقل مع ورود أمثال هـذه المتشابهات في النقل فسح مجالاً للناظرين خصوصاً ودعوة الدين إلى الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحدّ ولا مشروطة بشرط للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤدٍّ إلى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلوّ في التجريد، ولا دنوٍّ من التحديد

مضى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو المرجع في الحيرة، والسراج في ظلمات الشبهة، وقضى الخليفتان بعده ماقدر لهما من العمر في مدافعة

---

(١) قولان اختار المؤلف في الدرس أولهما

الاعداء ، وجمع كلمة الاولياء ، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم ، ليبتلوها بالبحث في مباني عقائدهم ، وما كان من اختلاف قليل رُدَّ اليهما ، وقضي الأمر فيه بحكمهما ، بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ان كانت حاجة الى الاستشارة . وأغلب الخلاف كان في فروع الاحكام لا في اصول العقائد . ثم كان الناس في الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوّضون فيما يوهم التشبيه ، ولا يذهبون وراء ما يفهمه ظاهر اللفظ

كان الأمر على ذلك الى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأفضى الى قتله . هوى بتلك الاحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الاسلام واهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها ، و بقي القرآن قائماً على صراطه (١٥ : ٩ إنّا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وفتح للناس باب لتعدي الحدود التي حدها الدين فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي وأشعر الامر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الايمان قلوبهم ، وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم ، وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الاصالة منهم ، فقضيت أمور على غير ما يحبون

وكان من العاملين في تلك الفتنة عبدالله بن سبأ . يهودي أسلم وغلا في حب علي كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه وأخذ يدعو إلى أنه الاحق بالخلافة وطعن على عثمان فنفاه فذهب الى البصرة

و بث فيها فتنته فأخرج منها فذهب الى الكوفة ونفث ما نفث من سم الفتنة فنفي منها فذهب الى الشام فلم يجد فيها ما يريد فذهب الى مصر فوجد فيها أعوانا على فتنته الى ان كان ما كان مما ذكرنا ثم ظهر بمذهبه في عهد عليّ فنفاه الى المدائن وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده

توالت الاحداث بعد ذلك ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان الى الامويين . غير أن بناء الجماعة قد انصدع وانفصمت عرى الوحدة بينهم وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة وأخذ الاحزاب في تأييد آرائهم كل ينصر رأيه على رأي خصمه بالقول والعمل . وكانت نشأة الاختراع في الرواية والتأويل، وغلا كل قبيل، فافترق الناس الى شيعة وخوارج ومعتدلين . وغلا الخوارج فكفروا من عداهم ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية وتكفيرهم لمن خالفهم زمناً طويلاً الى أن تضعضع أمرهم بعد حروب أكلت كثيرا من المسلمين وانتشرت فارّتهم في أطراف البلاد ولم يكفوا عن اشعال الفتن وبقيت منهم بقية الى اليوم في أطراف أفريقيا وناحية من جزيرة العرب . وغلا بعض الشيعة . فرفعوا عليا أو بعض ذريته الى مقام الالوهية أو مايقرب منه وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد

غير ان شيئاً من ذلك لم يقف في سبيل الدعوة الاسلامية ولم

يحجب ضياء القرآن عن الاطراف المتنائية عن مثار النزاع وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم ، والمصريين والافريقيين ومن يليهم، واستراح جمهور عظيم من العمل في الدفاع عن سلطان الاسلام، وآن لهم أن يشتغلوا في أصول العقائد والاحكام، بما هداهم اليه سير القرآن، اشتغالا يحرص فيه على النقل، ولا يهمل فيه اعتبار العقل ، ولا يغض فيه من نظر الفكر ، ووجد من أهل الاخلاص من انتدب للنظر في العلم والقيام بفريضة التعليم ومن اشهرهم الحسن البصري فكان له مجلس للتعليم والافادة في البصرة يجتمع اليه الطالبون من كل صوب، وتمتحن فيه المسائل من كل نوع، وكان قد التحف بالاسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة دخلوه حاملين لما كان عندهم راغبين ان يصلوا بينه و بين ماوجدوه، فثارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن، واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من اطلاق العنان للفكر، وشارك الدخلاء، من حق لهم السبق من العرفاء، و بدت رءوس المشاقين ، تعلو بين المسلمين ،

وكانت أول مسئلة ظهر الخلاف فيها مسئلة الاختيار واستقلال الانسان بارادته وأفعاله الاختيارية ، ومسئلة من ارتكب الكبيرة ولم يتب، اختلف فيها واصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصري واعتزله يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه. غير أن كثيراً من السلف ومنهم الحسن على قول كان على رأي ان العبد مختار في أعماله الصادرة عن علمه وارادته .

وقام ينازع هؤلاء اهل الجبر الذين ذهبوا الى ان الانسان في عمله الارادي كأغصان الشجرة في حركاتها الاضطرارية . كل ذلك وأرباب السلطان من بني مروان لا يحفلون بالامر ولا يُعنَون برد الناس الى أصل وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل الى ما شاء سوى ان عمر ابن عبد العزيز امر الزهوي بتدوين ماوصل اليه من الحديث وهو اول من جمع الحديث.

ثم لم يقف الخلاف عند المسئلتين السابقتين بل امتدّ الى إثبات صفات المعاني للذات الالهية أو نفيها عنها والى تقرير سلطة العقل في معرفة جميع الاحكام الدينية حتى ما كان منها فروعاً وعبادات (غلوا في تأييد خطة القرآن) أو تخصيص تلك السلطة بالاصول الاولى على ما سبق بيانه. ثم غالى آخرون وهم الأقلون فمحوها بالمرة وخالفوا في ذلك طريقة الكتاب عنادا للاوّلين . وكانت الآراء في الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء في العقائد كأنها مبنى من مباني الاعتقاد الاسلامي

تفرقت السبل بأتباع واصل وتناولوا من كتب اليونان ما لاق بعقولهم وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما اثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعاً الى أوّليات العقل، وما كان سرابا في نظر الوهم، فخلطوا بمعارف الدين مالا ينطبق حتى على أصل من أصول النظر، ولجوا في ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات. أيدتهم الدولة العباسية وهي في ريعان القوة فغلب رأيهم وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب فأخذ

المتمسكون بمذاهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين، وان لم يكن لهم عضد من الحاكمين

عرف الاولون من العباسيين، ما كان من الفرس في اقامة دولتهم وقلب دولة الامويين، واعتمدوا على طلب الانصار فيهم ، واعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم، فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين في شيء. وكان فيهم المانوية واليزدية ومن لا دين له وغير أولئك من الفرق الفارسية. فأخذوا ينفثون من أفكارهم ، ويشيرون بحالهم وبمقالهم الى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم ، فظهر الالحاد وتطلعت رءوس الزندقة حتى صدر أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم وإبطال مزاعمهم

فيما حوالي هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتا لم يتكامل نموه، وبناء لم يتشامخ علوه، وبدأ علم الكلام كما انتهى مشوبا بمبادئ النظر في الكائنات جريا على ماسنه القرآن من ذلك. وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته وانتصر للاول جمع من خلفاء العباسيين وامسك عن القول أو صرح بالازلية عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة، أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة، واهين في ذلك رجال من أهل العلم والتقوى وسفكت فيه دماء بغير حق. وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين. على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل، وما توسط أو غلا من الاستمساك بظاهر الشرع، والكل على وفاق على أن الاحكام الدينية

واجبة الاتباع — ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده، وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض توطين النفس عليه، وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهريين طلبوا أن يحملوا القرآن، على ما حملوه عند التحافهم بالاسلام، وافرطوا في التأويل، وحولوا كل عمل ظاهر، الى سر باطن، وفسروا الكتاب، بما يبعد عن تناول الخطاب، بعد الخطإ عن الصواب، وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ولهم أسماء أخر تعرف في التاريخ فكانت مذاهبهم غائلة الدين، وزلزال اليقين، وكانت لهم فتن معروفة، وحوادث مشهورة

مع اتفاق السلف وخصومهم، في مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم، كان أمر الخلاف بينهم جللا، وكانت الايام بينهم دولا، ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض، واستفادة كل فريق من صاحبه، الى أن الشيخ أبو الحسن الاشعري في أوائل القرن الرابع (١) وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر وارتاب في أمره الاولون وطعن كثير منهم على عقيدته وكفره الحنابلة واستباحوا دمه ونصره جماعة من أكابر العلماء كأبي بكر الباقلاني وامام الحرمين والاسفرايني وغيرهم (٢) وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة. فانهزم من بين أيدي هؤلاء الافاضل قوتان عظيمتان قوة الواقفين عند الظواهر، وقوة الغالين في الجري خلف ما تزينه

---

(١) ولد سنة ٢٧٠ وتوفي سنة ٣٣٠ ونيف (٢) أي نصره هؤلاء بعد موته

الخواطر ، ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو قرنين إلا فئات قليلة في أطراف البلاد الاسلامية

غير ان الناصرين لمذهب الاشعري بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدي اليه من عقائد الايمان ذهاباً منهم الى أن عدم الدليل يؤدي الى عدم المدلول ومضى الامر على ذلك الى أن جاء الامام الغزالي والامام الرازي ومن أخذ مأخذهم فخالفوهم في ذلك وقرروا أن دليلا واحداً أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلاوجه للحجر في الاستدلال

اما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ولم يكن من همّ أهل النظر من الفلاسفة الا تحصيل العلم والوفاء بما يندفع اليه رغبة العقل من كشف مجهول ، أو استكناه معقول، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاؤا وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم بحمايته ويدع لهم من اطلاق الارادة ما يتمتعون به في تحصيل لذة عقولهم وافادة الصناعة وتقوية اركان النظام البشري بما يكشفون من مساتير الاسرار المكنونة في ضمائر الكون مما أباح الله لنا ان نتناوله بعقولنا وافكارنا في قوله (٢٩:٢ خلق لكم ما في الارض جميعاً) اذ لم يستثن من ذلك ظاهرا ولا خفيا. وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقاب في سبيلهم الى ما هدوا اليه بعدما رفع القرآن

من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهي اليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع و بعد ما صح من قوله عليه السلام « انتم أعلم بشؤون دنيا كم » (١) و بعد ما سن لنا في غزوة بدر من سنة الاخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء

لكن يظهر ان أمرين غلبا على غالبهم (الاول) الاعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان خصوصاً عن ارسطو وافلاطون و وجدان اللذة في تقليدهما لبادئ الامر (والثاني) الشهوة الغالبة على الناس في ذلك الوقت وهو أشأم الامرين : زجوا بأنفسهم (٢) في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين واصطدموا بعلومهم في قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة فمال حماة العقائد عليهم. وجاء الغزالي ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات وما يتصل بها من الامور العامة أو احكام الجواهر والاعراض ومذاهبهم في المادة وتركيب الاجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام

(١) رواه مسلم من حديث أنس وعائشة بلفظ « بأمر دنيا كم »

(٢) استئناف لبيان ثاني الامرين وكونه أشأمهما حاصله ان الفلاسفة لو لم يخلطوا فنونهم بالدين ويزجوا بأنفسهم في المنازعات الدينية لتركوا وشأنهم في البحث واذاً لارتقت علومهم وارتقت بها الصناعة واتسع العمران . ذكره المؤلف في الدرس وكان من رأيه أنه يجب ان لا تمزج الفلسفة والعلوم الدنيوية بالمسائل الدينية

يمس شيئا من مباني الدين واشتدوا في نقده و بالغ المتأخرون منهم في تأثرهم حتى كاد يصل بهم السير الى ما وراء الاعتدال فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الاسلامي من سعيهم

هذا هو السبب في خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة في كتب المتأخرين كما نراه في كتب البيضاوي والعضد وغيرهم وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعاً علماً واحداً والذهاب بمقدماته ومباحثه الى ما هو أقرب الى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الاجيال المختلفة وتغلب الجهال على الامر وفتكوا بما بقي من أثر العلم النظري النابع من عيون الدين الاسلامي فانحرفت الطريق بسالكيها ولم يعد بين الناظرين في كتب السابقين إلا تحاوره في الالفاظ وتناظر في الاساليب . على أن ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور . ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم فجاء قوم ظنوا في انفسهم مالم يعترف به العلم لهم فوضعوا مالم يعد للاسلام قبله باحتماله . غير انهم وجدوا من نقص المعارف أنصارا ، ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا ، فشردوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا في التضليل والتكفير ، وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الامم في دعوى العداوة بين العلم والدين وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب

هذا حلال وهذا حرام، وهذا كفر وهذا اسلام، والدين من وراء مايتوهمون، والله جل شأنه فوق مايظنون وما يصفون، ولكن ماذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أعمالهم من انفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط؟ شرّ عظيم وخطب عميم

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين، وكيف عبثت به في نهاية الامر أيدي المفرقين، حتى خرجوا به عن قصده، و بعدوا به عن حده،

والذي علينا اعتقاده ان الدين الاسلامي دين توحيد في العقائد، لا دين تفريق في القواعد، العقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه، وماوراء ذلك فنزغات شياطين، أو شهوات سلاطين، والقرآن شاهد على كلٍّ بعمله، قاض عليه في صوابه وخطله،

الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به. والتصديق برسله على موجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل، لا استرسالا مع التقليد، حسبما أرشدنا اليه الكتاب فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين ايدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ اليه من دقائقه تحصيلا لليقين بما هدانا اليه. ونهانا عن التقليد بما حكى عن احوال الامم في الاخذ بما عليه آباؤهم وتبشيع ما كانوا عليه من

ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وامّحاء وجودهم الملي ، وحق ماقال فان التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل ، وكما يكون في النافع يحصل الضار ، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ، ولا تجمل بحال الانسان

اقسام المعلوم

يقسمون المعلوم الى ثلاثه أقسام ممكن لذاته وواجب لذاته ومستحيل لذاته (١) ويعرّفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هي اما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هي والممكن ما لا وجود له ولا عدم من ذاته وانما يوجد لموجد ويعدم لعدم سبب وجوده وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره. واطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز فان المعلوم حقيقة لا بد ان يكون له كون في الواقع ينطبق عليه العلم والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه في أحكامه وإنما المراد ما يمكن الحكم عليه وإن في صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها الى الحكاية عنه

(١) هذه القسمة عقلية وهي للحصر لأن ما يتعلق به العلم اما ثابت قطعاً لا يقبل الانتفاء لذاته وهو الواجب وإما ضده وهو المستحيل واما واسطة بينهما وهو ما لا تقتضي ذاته الثبوت ولا الانتفاء بل يجوز لها =

﴿ حكم المستحيل ﴾

وحكم المستحيل لذاته أن لا يطرأ عليه وجود فان العدم من لوازم ماهيته(١)

═ الامران بحسب العلل وهو الممكن . فمعنى كون الشيء ممكنا أو مستحيلا أو واجباً لذاته هو كونه كذلك لغير علة اقتضت ذلك غير ذاته وحقيقته أي ان ذاته إذا تصورت مجردة من كل اعتبار لم تكن الا كذلك . والمراد بالإمكان والوجوب والاستحالة ما كان كذلك بحكم العقل القاطع لا العادة فمثال المستحيل اجتماع النقيضين ككون الشيء موجوداً معدوماً في آن واحد أي موجوداً لا موجوداً فهذا معلوم بجزم العقل بعدمه أي عدم تحققه لذاته أي ان ذاته لا يمكن ان تكون ثابتة وليس منه مشي الانسان على الماء أو طيرانه وانما هذا مستحيل عادة . ومثال الواجب الوجود المطلق والزوجية للاربعة فانك لا يمكنك ان تتصور العدم المحض ولا كون الاربعة ليست زوجاً . ومثال الممكن ظاهر فان جميع ماهيات هذه الموجودات التي ندركها بحواسنا ممكنة الوجود كما يعلم مما يأتي في الرسالة

(١) يفسرون الماهية بأنها ما به الشيء هو هو ونوضح ذلك بقولنا ان ماهية الشيء ترادف حقيقته في الجملة ومثال ذلك ان ما يتصوره الذهن من معنى الانسانية الكلي الذي يوجد في كل إنسان غير مصاب بعلة ككونه حيواناً ناطقاً عاقلاً يسمى ماهية الانسان وحقيقته

من حيث هي فلوطرأ الوجود عليه لسُلب لازم الماهية من حيث هي عنهاوهو يؤدي إلى سلب الماهية(١) عن نفسها بالبداهة فالمستحيل لا يوجد فهو ليس بموجود قطعاً بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة (٢) كما أشرنا اليه فهو ليس بموجود في الخارج ولا في الذهن

= ولكن تختلف التسمية باختلاف الاعتبار فما يتعقل من معني الشيء الذي تتقوم به ذاته ويجاب به اذا سئل عنه بما هو ذلك الشيء يسمى ماهية وإنما يسمى حقيقة او ذاتا باعتبار تحققه ولذلك يطلق لفظ الماهية على مالا تحقق له كمفهوم العنقاء ولا يطلق عليه لفظ الحقيقة . ولازم الشيء مالا ينفك عنه كلزوم الانقسام الى متساوين للزوج

(١) قال المؤلف ان هذا من القضايا التي قياساتها معها لان سلب اللازم انما يكون بسلب الملزوم وهو كون الماهية هي . أي فهو كسلب الانقسام الى متساويين عن عدد الزوج وهو نفي لكونه زوجا فكأنك قلت انه زوج غير زوج

(٢) يريد بهذا ان ما ذكر من ماهية المستحيل هو امر اعتباري أو فرضي يخترعه العقل لاجل الحكاية عنه كما تقدم في الرسالة (ص١٨) لا لأن له تحققا في نفسه فالحق ان المستحيل ليس له ماهية ثابتة لا في الخارج لأن ما في الخارج هو الموجود بالفعل والمستحيل لا يوجد، ولا في الذهن لان ما في الذهن لا يكون الا صورة لما في الخارج منتزعة منه ولذلك قال فهو ليس بموجود الخ

أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجد الا بسبب وأن لا ينعدم الا بسبب وذلك لانه لا واحد من الأمرين له لذاته فنسبتهما إلى ذاته على السواء فان ثبت له إحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة(١)

ومن أحكامه أنه ان وجد يكون حادثا لانه قد ثبت أنه لا يوجد الاّ بسبب فإما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده والأول باطل وإلا لزم تقدم المحتاج على ما اليه الحاجة وهو ابطال لمعنى الحاجة وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤدي إلى خلاف المفروض(٢) والثاني كذلك والا لزم تساويهما في رتبة الوجود فيكون

---

(١) أي لانه جمع بين النقيضين اذ معناه انهما متساويان غير متساويين في آن واحد . فهو من القضايا التي قياستها معها

(٢) أي إن وجوده قبل سببه يؤدي الى الجمع بين النقيضين وهو كونه اي الممكن محتاجا في وجوده الى السبب غير محتاج اليه . وقوله «والثاني كذلك» ظاهر فان وجود الشيء مع وجود سببه من غير سبق السبب على المسبب يقتضي ان مافرض سببا لا يكون سببا وأن الممكن محتاج الى السبب غير محتاج اليه وهو تناقض ظاهر . وقوله والا لزم تساويهما في في مرتبة «الوجود» مثاله ان يوجد الاب والابن اي يولدا في وقت =

الحكم على أحدهما بأنه أثر والثاني مؤثر ترجيحاً بلا مرجح وهو مما لا يسوغه العقل. على أن علّيّة أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة فتعين الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه فيكون مسبوقا بالعدم في مرتبة وجود السبب فيكون حادثا إذ الحادث ما سُبق وجوده بالعدم فكل ممكن حادث

الممكن لا يحتاج في عدمه الى سبب وجودي لان العدم سلب والسلب لا يحتاج الى ايجاد بداهة فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ما كان سبباً في بقائه أما في وجوده فيحتاج الى سبب وجودي ضرورة لان العدم لا يكون مصدراً للوجود فالموجود إن حدث فانما يكون حدوثه بايجاد وذلك كله بديهي

كما يحتاج الممكن للسبب في وجوده ابتداء يحتاج اليه في البقاء لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضي الوجود ولا يرجح لها الوجود عن العدم الا للسبب الخارجي الوجودي فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لا يفارقها من حيث هي فلا يكون للممكن حالة يقتضي فيها الوجود لذاته فيكون في جميع أحواله محتاجاً الى مرجح الوجود عن العدم لا فرق بين الابتداء والبقاء

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الإيجاد ومعطي الوجود وهو

= واحد. ومن البديهي ان الشخصين اللذين يولدان في وقت واحد لا يمكن أن يكون أحدهما أبا والآخر ابنا

الذي يعبر عنه بالموجد و بالعلة الموجدة و بالعلة الفاعلة و بالفاعل الحقيقي ونحو ذلك من العبارات التي تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المعدّ الذي يهيئ الممكن لقبول الايجاد من موجده وهو بهذا المعنى قد يحتاج اليه في الابتداء ويستغنى عنه في البقاء وقد تكون الحاجة الى وجوده ثم عدمه ومن هذا القبيل وجود البنّاء فانه شرط في وجود البيت وقد يموت البنّاء و يبقى بناؤه وليس البناء واهب الوجود للبيت وانما حركات يديه وحركات ذهنه واطوار ارادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به و بالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شيء و بين استفادته الوجود من شيء فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم كما في توقف الخطوة الثانية على الاولى فان الاولى ليست واهبة الوجود للثانية وإلا وجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد الا اذا انعدمت الاولى أما استفادة الوجود فتقتضي سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه وان يكون وجود المستفيد مستمدا من وجود للواهب لا يقوم الا به فلا يستقل بنفسه دونه في حال من الاحوال

الممكن موجود قطعا

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن وأخرى تنعدم بعد ان كانت كاشخاص النباتات والحيوانات فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة

أو ممكنة لا سبيل الى الاول لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ولا الى الثاني لان الواجب له الوجود من ذاته وما بالذات لا يزول فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه كما سيجيء في أحكام الواجب فهي ممكنة فالممكن موجود قطعاً

وجود الممكن يقتضي بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة وكل ممكن محتاج الى سبب يعطيه الوجود فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها الى موجد لها فإما ان يكون عينها وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه وإما أن يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سبباً لنفسه ولما سبقه ان لم يكن الاول ولنفسه فقط إن فرض أول . و بطلانه ظاهر. فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات والموجود الذي ليس بممكن هو الواجب اذ ليس وراء الممكن الا المستحيل والواجب والمستحيل لا يوجد فيبقى الواجب فثبت ان للممكنات الموجودة موجداً واجب الوجود(١)

وأيضاً الممكنات الموجودة سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة

---

(١) هذه هي نتيجة تلك المقدمات كلها وملخصها ان المستحيل لا يوجد والممكن موجود بالفعل ويوجد دائماً ووجوده يدل على وجود الواجب قطعاً

بوجود فذلك الوجود إما ان يكون مصدره ذات الامكان وماهيات الممكنات وهو باطل لما سبق في أحكام الممكن من أنه لا شيء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة

احكام الواجب

القدم والبقاء ونفي التركيب

من أحكام الواجب أن يكون قديماً أزليا لانه لو لم يكن كذلك لكان حادثا والحادث ما سُبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقاً بعدم وكل ما سبق بالعدم يحتاج الى علة تعطيه الوجود وإلا لزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال فلو لم يكن الواجب قديماً لكان محتاجاً في وجوده إلى موجد غيره وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون ما فرض واجباً واجبا وهو تناقض محال. ومن أحكامه أن لا يطرأ عليه عدم وإلا لزم سلب ما هو للذات عنها وهو يعود الى سلب الشيء عن نفسه وهو محال بالبداهة

من أحكامه ان لا يكون مركبا اذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من اجزائه على وجود جملته التي هي ذاته وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة فيكون وجود جملته محتاجا الى وجود غيره وقد سبق

أن الواجب ما كان وجوده لذاته . ولانه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفا على الحكم بوجود اجزائه وقدقلنا انه لذاته من حيث هي ذاته.ولا نه لا مرجح لان يكون الوجوب له دون جزءمن اجزائه بل يكون الوحوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه

نفي التركيب في الواجب شامل لمايسمونه حقيقةعقلية (١) أوخارجية فلا يمكن للعقل أن يحاكي ذات الواجب بمركب فان الاجزاء العقلية لابد لها من منشإ انتزاع في الخارج فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة في الخارج وإلا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتباراً كاذب الصدق (٢) لا حقيقة

كمالايكون الواجب مركبا لايكون قابلاللقسمة(٣)في أحدالامتدادات

---

(١) قوله حقيقة عقلية مبني على القول بها على سبيل التوضيح والا فما يعرف عند علماء المعقول بالحقيقة العقلية لا ثبوت له وقد نفاها المؤلف في الدرس وأثبت أنه ليس وراء الحقائق الخارجية الممكنة الا إدراكها أي الصور التي ينتزعها الذهن من الوجود الخارجي . وبين في درس المنطق بطلان مذهب أفلاطون في الوجود العقلي ومذهب ارسطو في كون الصور الذهنية هي حقائق هذه الموجودات الخارجية

(٢) أي تصورا مخترعا لا يصدق على شيء في الواقع

(٣) سئل المؤلف في الدرس هل يصدق ذلك بالجوهر الفرد بالمعنى الذي يقولونه وهو انه لا يقبل القسمة فعلا ولا عقلا ولا وهما فقال ان ؛

الثلاث أي لا يكون له امتدادلانه لو قبل القسمة لعادبها الى غير وجوده الأول وصار الى وجودات متعددة وهي وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة فيكون ذلك قبولاً للعدم أو تركبا وكلاهما محال كما سبق

الحياة

معنى الوجود وان كان بديهيا عند العقل ولكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار وكمال الوجودوقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ماهوكمال لتلك المرتبة في المعنى السابق ذكره والا كان الوجودلمرتبة سواها وقد فرض لها. مايتجلى للنفس من مُثُل الوجود لا ينحصر واكمل مثال في اي مراتبه ما كان مقرونا بالنظام والسكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودامستمرا وان في النوع كان أدل على كمال المعنى الوجودي في صاحب المثال

فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدرا لكل نظام كان ذلك عنواناً على أنها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها

= الجوهر الفرد بهذا المعنى لا حقيقة له ونحن نحمل كلام من يقول بالجوهر الفرد على الجزء الذي لا ينقسم فعلا لشدة صغره وهذا ليس بمراد هنا قطعا

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا وكل ما تصوره العقل كمالاً في الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور وأمكن أن يكون له وجب أن يثبت له، وكونه مصدرا للنظام وتصريف الاعمال على وجه لا اضطراب فيه يعدّ من كمال الوجود كما ذكرنا فيجب أن يكون ذلك ثابتا له فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له

فمما يجب ان يكون له صفة الحياة وهي صفة تستتبع العلم والارادة وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالاً للوجود بداهة فان الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة(١) وهي في أي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار في تلك المرتبة فهي كمال وجودي ويمكن أن يتصف بها الواجب وكل كمال وجودي يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له فواجب الوجود حي وان باينت حياته حياة الممكنات فان ما هو كمال للوجود انما هو مبدأ العلم والإرادة. ولو لم تثبت له هذه الصفة (٢) لكان في الممكنات ما هو أكمل منه وجوداً وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه

---

(١) دليل فيه اضمار تقديره وكل ما كان مصدر النظام الخ فهو كمال وجودي فالحياة كمال وجودي (٢) دليل ثان على ثبوت الحياة لواجب الوجود. وقوله بعده «والواجب هو واهب الوجود» دليل ثالث

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف لو كان فاقداً للحياة يعطيها فالحياة له كما أنه مصدرها

العلم

ومما يجب له صفة العلم ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة أي مصدر ذلك الانكشاف منه لان العلم من الصفات الوجودية التي تعد كمالاً في الوجود ويمكن أن تكون للواجب وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له فواجب الوجود عالم

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال في الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم فلو لم يكن الواجب عالما لكان في الموجودات الممكنة ماهو أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا. ثم هو واهب العلم في عالم الامكان ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده

علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علوّ وجوده عن الوجودات فلا يتصور في العلوم ماهو أعلى منه فيكون محيطا بكل مايمكن علمه وإلاَّ تصور العقل علماً أشمل، وهو إنما يكون لوجود أكمل، وهو محال .

ماهو لازم لوجود الواجب يغنى بغناه ويبقى ببقائه وعلم الواجب من لوازم وجوده فلا يفتقر الى شيء ماوراء ذاته فهو أزلي أبدي غني عن الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر فيخالف علوم الممكنات بالضرورة

مايوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم والا لم يكن علما

من أدلة ثبوت العلم للواجب مانشاهد في نظام الممكنات من الإحكام والإتقان ووضع كل شيء في موضعه وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه في وجوده و بقائه وذلك ظاهر لجلي النظر بما يشاهد في الاعيان كبيرها وصغيرها علويها وسفليها فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذي قدر لها وإلزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره

اعتبر بما تراه في جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها وإيتائها ماتحتاج اليه في تقويم وجودها من الآلات والاعضاء ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها وايداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل الى تناول مايناسبه من الغذاء دون مالايلائمه فترى بزرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ في ارض واحدة ثم تسقى بماء واحد وتنمى بعناية واحدة ولكن تلك تمتص من المواد مايغذي المر الزعاق، وهذه تتناول مايغذو حلو المذاق ، وإرشاد الحساس منها الى استعمال مامنح من تلك الادوات والاعضاء وسوق كل قوة من قواه الى ماقدرت له فهو الذي يعلم حالة الجنين وهو نطفة أو علقة ويعلم حاجته متى تكامل

خلقه وأنشأه نشأة الحي المستقل في عمله الى الايدي والارجل والاعين والمشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادي عليه وحاجته الى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الاعضاء التي لا غنى عنها في النمو والبقاء الى الاجل المحدود للشخص او للنوع

هو الذي يعلم حالة الجروة من الكلاب مثلا وأنها متى كبرت تلد أجراء متعددة فيمنحها أطباء (١) كثيرة وغير ذلك مما لا يستطاع إحصاؤه وقد فصل الكثير منه في كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعي وفنون منافع الاعضاء والطب وما يتبعه . على أن الباحثين في ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من الاسرار لم يزالوا في أول البحث

هذا الصنع الذي انما تتفاضل العقول في فهم أسراره والوقوف على دقائق حكمه ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شيء الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟ هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة (٢) أن يكون ينبوعاً لهذا النظام وواضعاً لتلك القواعد التي يقوم عليها وجود الاكوان

---

(١) الاجراء جمع جرو والاطباء جمع طبي بالكسر وهو حلمات الضرع (٢) الصدفة استعمل هذا اللفظ المولدون ولم يعرف عن العرب وقد استبدل به المؤلف في تصحيح خطبة شرحه لنهج البلاغة لفظ المصادفة وتركه هنا

عظيمها وحقيرها؟؟ كلاً بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم

الإرادة

مما يجب لواجب الوجود الإرادة وهي صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة. بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب وأنه عالم وأن ما يوجد من الممكن لا بد أن يكون على وفق علمه ثبت بالضرورة انه مريد لانه انما يفعل على حسب علمه ثم ان كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة وله وقت ومكان محدودان وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ولا معنى للارادة إلا هذا

أما ما يعرف من معنى الارادة وهو ما به يصح للفاعل ان ينفذ ما قصده وأن يرجع عنه فذلك محال في جانب الواجب فان هذا المعنى من الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ وهي من توابع النقص في العلم فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك

القدرة

ومما يجب له القدرة وهي صفة بها الايجاد والاعدام ولما كان

الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وارادته فلاريب يكون قادراً بالبداهة لان فعل العالم المريد فيما علم وأراد انما يكون بسلطة له على الفعل ولا معني للقدرة إلا هذا السلطان

﴿ الاختيار ﴾

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار اذ لامعنى له الا اصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الارادة فهو الفاعل المختار ليس من افعاله ولا من تصرفه في خلقه ما يصدرعنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودي بدون شعور ولا ارادة وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد فيأتيه تنزها عن اللائمة تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى انما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذي هو أكمل الوجودات وأرفعها فالكمال في الكون انما هو تابع لكمال المكوّن وإتقانه الابداع انما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والإرادة المطلقة فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع (٢٣ : ١١٥ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون) وهذا هو معنى قولهم ان أفعاله لا تعلل بالاغراض ولكنها تُنَزَّه عن العبث ويستحيل ان تخلو من الحكم وان خفي شيء من حكمتها عن أنظارنا (١)

---

(١) قد تخفى حكمة الشيء عن البشر زمنا طويلا ثم تظهر

الوحدة

ومما يجب له صفة الوحدة ذاتا و وصفا و وجودا وفعلا أما الوحدة الذاتية فقد اثبتناها فيما تقدم بنفي التركيب في ذاته خارجاً وعقلاً وأما الوحدة في الصفة أي أنه لا يساويه في صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من ان الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس في الموجودات ما يساوي واجب الوجود في مرتبة الوجود فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات. وأما الوحدة في الوجود وفي الفعل ونعني بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من ايجاد الممكنات فهي ثابتة لانه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة والا لم يتحصل معنى التعدد وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة لان الصفة انما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبداهة فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة اذ يكون لكل واحدة منها علم وارادة يباينان علم الأخرى وارادتها ويكون لكل واحدة علم وارادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها

هذا التخالف ذاتي لان علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج فلا سبيل الى التغير والتبدل فيهما كما سبق وقد قدمنا أن فعل الواجب انما يصدر عنه على حسب علمه وحكم ارادته فيكون فعل كلّ صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية فلو تعدد،

الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وارادتهم وهو خلاف يستحيل معه الوفاق وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الايجاد في عامة الممكنات فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وارادته ولا مرجح لنفاذ احدى القدرتين دون الاخرى فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وارادتهم فيفسد نظام الكون بل يستحيل ان يكون له نظام بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات لأن كل ممكن لا بد أن يتعلق به الايجاد على حسب العلوم والارادات المختلفة فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعدّدة وهو محال فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا(١) لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته لا شريك له في وجود ولا في أفعاله

الصفات السمعية التي يجب الاعتقاد بها

ما قدَّمنا من الصفات التي يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هي ما أرشد اليه البرهان وجاءت الشريعة الاسلامية وما تقدَّمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة اليه بلسان نبينا محمد صلى الله عليه ولسان

(١) تقرير لكون قوله تعالى (٢١ : ٢٢ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » برهانا قطعيا لا دليلا اقناعيا كما زعم من لم يفهم الآية والمراد بقوله فيهما السموات والارض المذكورتين في الآية ١٩

من سبقه من الانبياء صلوات الله عليهم اجمعين

ومن الصفات ماجاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل اذا حمل على مايليق بواجب الوجود ولكن لا يهتدي اليه النظر وحده ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره الشرع وتصديقا لما أخبر به

فمن تلك الصفات صفة الكلام فقد ورد أن الله كلم بعض انبيائه ونطق القرآن بأنه كلام الله فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لا بد ان يكون شأنا من شؤونه قديما بقدمه (١)

---

(١) إن الله تعالى جعل للناس طرقاً عامة كالحواس والعقل يكسبون بها العلم كسباً فينالون منه بحسب اجتهادهم واختص من شاء من المصطفين بعلم ينزله على قلوبهم بلا كسب منهم ولما كانت القوة التي يتمكن بها الانسان من إفادة غيره العلم تسمى كلاماً نفسيا وما تحصل به الإفادة بالفعل من قول أو كتابة يسمى كلاماً لفظيا استعير هذا اللفظ للشأن الإلهي الذي به يوحي الله الى أنبيائه ما شاء من العلم فقيل ان لله كلاماً هو صفة له يعني شأناً من شؤونه هو مصدر الوحي وافادة العلم للانبياء والملائكة وسمي ما يوحيه اليهم كلاماً أيضاً وليس في اللغة لفظ يعبر به عن ذلك يقوم مقام هذا اللفظ المستعمل في كلام الناس مع العلم بتنزيه كلام الله عن مشابهة كلام الناس كعلمه وعلمهم وقدرته وقدرتهم . وقد حذفنا من هنا

ومماثبت له بالنقل صفة البصر وهى مابه تنكشف المبصرات وصفة السمع وهي مابه تنكشف المسموعات فهو السميع البصير لكن علينا ان نعتقد أن هــذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة مما هو معروف لنا

كلام في الصفات اجمالا

أبتدى الكلام فيما أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله صلى الله عليه وسلم «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا (١)

= نحو صفحة من الرسالة في مسألة الخلاف في خلق القرآن عملاً بأمر المؤلف اذ كتب بخطه على هامش نسخته ما نصه: « في الطبعة الثانية يحذف القول في خلق القرآن » وبين لنا السبب في ذلك في الدرس فقال انه التزم في الرسالة مذهب السلف وهذه المسألة من البدع التي ليست من مذهبهم وكان الذي ذكره بذلك الشيخ محمد محمود الشنقيطي (رحمهما الله تعالى) فاذعن وذكر ذلك في الدرس وقد نوهنا بذلك في العدد ٢٥ من منار السنة الأولى في مقالة عنوانها (سجايا العلماء).

(١) الحديث ورد بألفاظ يتفق معناها قال الحافظ العراقي في تخريج احاديث الاحياء رواه ابو نعيم في الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف. =

إذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ماينتهي اليه كماله انما هو الوصول الى معرفةعوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الادراك الانساني حسا كان او وجدانا اوتعقلا ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها وتحصيل كليات لأنواعها والإحاطة ببعض القواعد لعروض مايعرض لها أما الوصول الى كنه (١) حقيقة ما فمما لا تبلغه قوته لإن اكتناه المركبات (٢)

= ورواه الاصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبراني في الاوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا اسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك اه. زاد الزبيدي في الشرح قلت حديث ابن عمر لفظه « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » هكذا رواه ابن ابي الدنيا في كتاب التفكر وابو الشيخ في العظمة والطبراني في الاوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي وضعفه والاصبهاني وابو نصر في الابانه وقال غريب. ورواه ابو الشيخ من حديث ابن عباس « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فانكم لا تقدرون قدره » ورواه ابن النجار والرافعي من حديث ابي هريرة « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله » الخ وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوي في المقاصد اه

(١) كنه الشيء جوهره وحقيقته وغايته ومعرفة الكنه هي معرفة الاحاطة التي ليس وراءها غاية يبحث عنها (٢) الاكتناه معرفة الكنه ومثال ذلك اكتناه الماء هو معرفة ما تركب منه وهو عنصران =

انما هو باكتناه ماتركبت منه وذلك ينتهي الى البسيط الصرف وهو لاسبيل الى اكتناهه بالضرورة وغاية مايمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره . خذ أظهر الاشياء وأجلاها كالضوء قررالناظرون فيه له أحكاما كثيرة فصلوها في علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ماهو ولا ان يكتنه معنى الاضاءة نفسه وانما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان . وعلى هذا القياس

ثم ان الله لم يجعل للانسان حاجة تدعو الى اكتناه شيء من الكائنات وانما حاجته الى معرفة العوارض والخواص ولذة عقله ان كان سليما انما هي تحقيق نسبة تلك الخواص الى ما اختصت به وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت وصرف للقوة إلى غير ماسيقت اليه

اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الاشياء اليه وهي نفسه: أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر؟ هل هي قبل الجسم أو بعده؟ هل هي فيه أو مجردة عنه ؟ كل هذه صفات لم يصل العقل الى اثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه وانما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حي له

= بسيطان بحسب ماوصل اليه علم من اكتشف هذا التركيب يسمونهما الاكسجين والإدروجين . فتقول الماء سائل شفاف مركب من الاكسجين والإدروجين على نسبة معينة فيشبه هذا أو يقرب ان يكون اكتناهما . اما اكتناه البسيط كالادروجين فلاسبيل اليه كما قاله بعد

شعور وارادة وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع إلى تلك العوارض التي وصل اليها بيديهته - أما كنه شيء من ذلك بل وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به

هذا حال العقل الانساني مع مايساويه في الوجود او ينحط عنه بل وكذلك شأنه فيما يظن من الافعال انه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الاعلى؟ ماذا يكون دهشه بل انقطاعه اذا وجه نظره الى ما لا يتناهى من الوجود الازلي الابدي؟

النظر في الخلق يهدي بالضرورة الى المنافع الدنيوية ويضيء للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره، وعليها تجلت أنواره، والى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ماهي عليه من النظام. وتخالف الانظار في الكون انما هو من تصارع الحق والباطل ولا بد أن يظفر الحق ويعلو على الباطل بتعاون الافكار أو صولة القويّ منها على الضعيف

أما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشري لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركب في ذاته، وتطاول الى ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى، فهو عبث ومهلكة: عبث لانه سعي الى ما لا يدرك ومهلكة لانه يؤدي الى الخبط في الاعتقاد لانه تحديد لما لا يجوز تحديده وحصر لما لا يصح حصره.

لاريب ان هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتي في الذات من حيث هي يأتي فيها مع صفاتها فالنهي واستحالة الوصول الى

الا كتناه شاملان لها فيكفينا من العلم بها أن نعلم انه متصف بها · اما ماوراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا ان تصل اليه ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب الا بتوجيه النظر الى المصنوع لينفذ منه الى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية · أما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها

فالذي يوجبه علينا الايمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات أزلي أبدي حي عالم مريد قادر متفرد في وجوب وجوده وفي كمال صفاته وفي صنع خلقه وأنه متكلم سميع بصير وما يتبع ذلك من الصفات التي جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه · أما كون الصفات زائدة على الذات وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معاني الكتب السماوية وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ونحو ذلك من الشؤون التي اختلف فيها النظار وتفرقت فيها المذاهب فمما لا يجوز الخوض فيه اذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل اليه والاستدلال على شيء منه بالالفاظ الواردة ضعف في العقل وتغرير بالشرع لان استعمال اللغة لا ينحصر في الحقيقة ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقي وانما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع فما علينا الا الوقوف عند ما تبلغه عقولنا وان نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا من الخائضين

أفعال الله جل شأنه

أفعال الله صادرة عن علمه وإرادته كما سبق تقريره وكل ماصدر عن علم وارادة فهو عن الاختيار ولاشيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته فجميع صفات الافعال من خلق ورزق وإعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما يثبت له تعالى بالامكان الخاص(١) فلا يطوف بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل عن علم وإرادة أن يتوهم أن شيئاً من أفعاله واجب عنه لذاته كما هو الشأن في لوازم الماهيات أو في اتصاف الواجب بصفاته مثلاً فان ذلك هو التناقض البديهي الاستحالة كما سبق الإشارة اليه

بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحمقى التي اختبط فيها القوم اختباط أخوة تفرقت بهم الطرق في السير الى مقصد واحد ثم التقوا في غسق الليل فصاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر فظن كل ان الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده فاستحر بينهم القتال ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ولما اسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد الى من بقي وهم الناجون ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعا

(١) الامكان الخاص عبارة عن كون كل من ايجاب ذلك وسلبه غير ضروري أي لا يمتنع فعله عقلا ولا يتحتم

على بلوغ ما أملوا ولوافقهم الغاية اخوانا بنور الحق مهتدين

نريد تلك المقالات المضطربة في انه يجب على الله رعاية المصلحة في افعاله وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عبيده وما يتلو ذلك من وقوع اعماله تحت العلل والاغراض فقد بالغ قوم في الايجاب حتى ظن الناظر في مزاعمهم انهم عدوه واحدا من المكلفين يفرض عليه ان يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية مالزمه من الواجبات تعالى عن ذلك علوا كبيرا وغلا آخرون في نفي التعليل عن أفعاله حتى خيل للممعن في مقالاتهم انهم لا يرضونه إلا قُلَّبا يبرم اليوم ما نقضه بالامس، ويفعل غدا ما اخبر بنقيضه اليوم، اوغافلا لا يشعر بما يستتبعه عمله «سبحان ربك رب العزة عما يصفون» وهو احكم الحاكمين واصدق القائلين جبروت الله وطهارة دينه أعلى وارفع من هذا كله

اتفق الجميع على ان افعاله تعالى لا تخلو من حكمة وصرح الغلاة والمقصرون جميعا بأنه تعالى منزه عن العبث في افعاله والكذب في أقواله ثم بعد هذا أخذوا يتنابذون بالالفاظ ويتمارون في الاوضاع ولا يدرى الى اي غاية يقصدون فلنأخذ ما اتفقوا عليه ولنرد الى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاما او يدفع فسادا خاصا كان أو عاماً لو كشف للعقل من اي وجه لعقله وحكم بان العمل لم يكن عبثا ولعبا . ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع الى هذا حاكمناه الى

أوضاع اللغة و بداهة العقل . لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ولا يتمثل عند العقل بمثالها الا اذا كان ما يتبع العمل مرادا لفاعله بالفعل والا لعد النائم حكيما فيما لو صدرت عنه حركة في نومه قتلت عقربا كادت تلسع طفلا أو دفعت صبيا عن حفرة كاد يسقط فيها، بل لوسم بالحكمة كثير من العجماوات اذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة او العامة والبداهة تأباه

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء «أن أفعال العاقل تصان عن العبث» ولا يريدون من العاقل الا العالم بما يصدر عنه بارادته ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر الا لأمر يترتب عليها يكون غاية لها وان كان هذا في العاقل الحادث فما ظنك بموجد كل عقل ومنتهى الكمال في العلم والحكم؟ هذه كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد

صنع الله الذي أتقن كل شيء(١) وأحسن خلقه(٢) مشحون بضروب الحكم ففيه ماقامت به السموات والارض وما بينهما وحفظ به نظام الكون باسره وما صانه عن الفساد الذي يفضي به الى العدم وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته خصوصا ماهو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ولولا هذه البدائع من الحكم ماتيسر لنا الاستدلال على علمه

فهذه الحكم التي نعرفها الآن بوضع كل شي في موضعه وايتاء

(١) إشارة الى سورة النمل ٢٧ : ٨٨ (٢) سورة الم السجدة ٣٢ : ٧

كل محتاج ماله اليه الحاجة إما ان تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا. لا يمكن القول بالثاني والا لكان قولا بقصور العلم ان لم تكن معلومة أو بالغفلة ان لم تكن مرادة وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء واستحالة غيبة أثر من آثاره عن ارادته فهو يريد الفعل ويريد مايترتب عليه من الحكمة ولا معنى لهذا الا إرادته للحكمة من حيث هي تابعة للفعل ومن المحال ان تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل ان تكون خالية من الحكمة وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة اذ لو صح توهم ان مايترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق

فوجوب الحكمة في افعاله تابع لوجوب الكمال في علمه وارادته وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين وهكذا يقال في وجوب تحقق ماوعد وأوعد به فانه تابع لكمال علمه وارادته وصدقه وهو أصدق القائلين. وما جاء في الكتاب او السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب إرجاعه الى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع على ماهدت اليه البديهيات السابق ايرادها وعلى مايليق بكمال الله وبالغ حكمته وجليل عظمته. والاصل الذي يرجع اليه كل وارد في هذا الباب قوله تعالى (٢١ : ١٦ وما خلقنا السماء والارضَ وما بينهما لاعبين ١٧ لو أردنا ان نتخذ لَهْوًا لاتخذناه من لدُنّا ان كنا فاعلين ١٨ بل نَقْذِفُ بالحقّ على الباطل فَيَدْمَغُهُ فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون)

وقوله «لاتخذناه من لدنا» اي لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق الذي لا يشوبه نقص وهو محال «وان» في قوله «ان كنا فاعلين» نافية وهو نتيجة القياس السابق (١)

بقي ان الناظرين في هذه الحقائق ينقسمون الى قسمين فمنهم من يطلب علمها لانه شهوة العقل وفيه لذته فهذا القسم يسمي المعاني بأسمائها ولا يبالي جوّز شرع اطلاقها في جانب الله ام لم يجوز فيسمي الحكمة غاية وغرضا وعلة غائية ورعاية للمصلحة وليس من رأيه ان يجعل لقلمه عنانا يرده عن اطلاق اسم متي صح عنده معناه وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة ان ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشؤون لإله عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم ويجب الاحتياط في تنزيهه ولو بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصا في جانبه فيتبرأ من تلك الالفاظ مفردها ومركبها فان الوجوب عليه يوهم التكليف والإلزام، وبعبارة أخرى يوهم القهر والتأثر بالاغيار، ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة الفكر، وهما من لوازم النقص في العلم، والغاية والعلة الغائية والغرض توهم حركة في نفس الفاعل من قبل البدء في العمل الى نهايته وفيها ما في سوابقها. ولكن الله أكبر، هل يصح أن تكون سعة المجال، أو التعفف في المقال، سبباً في التفرقة بين المؤمنين وتماريهم في

(١) القياس هو قوله في آخر ص ٤٤ فهذه الحكم التي نعرفها الخ

الجدال، حتى ينتهي بهم التفرق الى ما صاروا اليه من سوء الحال ؟ ؟

افعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج في ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله و يقدرها بارادته ثم يصدرها بقدرة ما فيه و يعد نكار شيء من ذلك مساوياً لانكار وجوده في مجافاته لبداهة العقل

كما يشهد بذلك في نفسه يشهده أيضاً في بني نوعه كافة متى كانوا مثله في سلامة العقل والحواس ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه وقد يطلب كسب رزق فيفوته وربما سعى الى منجاة فسقط في مهلكة فيعود باللائمة على نفسه ان كان لم يحكم النظر في تقدير فعله ويتخذ من خيبته أول مرة مرشداً له في الأخرى فيعاود العمل من طريق أقوم، و بوسائل أحكم، و يتقد غيظه على من حال بينه و بين ما يشتهي إن كان سبب الاخفاق في المسعى منازعة منا فس له في مطلبه لوجدانه من نفسه أنه الفاعل في حرمانه فينبري لمناضلته . وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك إن لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقي من مصير عمله كأن هب ريح فأغرق بضاعته أو نزلت صاعقة فأحرقت ماشيته أو علق أمله بمعين فمات أو بذي منصب

فعزل يتجه من ذلك الى أن في الكون قوّة أسمى من أن تحيط بها قدرته، وأن وراء تدبيره سلطانا لا تصل اليه سلطته، فإن كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل الى ان حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب الوجود واحد يصرفه على مقتضى علمه وارادته خشع وخضع ورد الأمر اليه فيما لقي، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقي، فالمؤمن كما يشهد بالدليل و بالعيان أن قدرة مكون الكائنات، أسمى من قوى الممكنات، يشهد بالبداهة أنه في أعماله الاختيارية، عقلية كانت أو جسمانية، قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله. وقد عرف القوم شكر الله على نعمه فقالوا هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لاجله

على هذا اقامت الشرائع و به استقامت التكاليف ومن أنكر شيئاً منه قد أنكر مكان الايمان من نفسه وهو عقله الذي شرفه الله بالخطاب في أوامره ونواهيه

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من احاطة علم الله وارادته و بين ما تشهد به البداهة من عمل المختار، فيما وقع عليه الاختيار، فهو من طلب سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول اليه، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفاً حيث ابتدؤا، وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا، فمنهم القائل بسلطة

العبد على جميع أفعاله واستقلاله المطلق وهو غرور ظاهر، ومنهم من قال بالجبر وصرح به، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه، وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وابطال لحكم العقل البديهي وهو عماد الإيمان

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لافعاله يؤدي الى الاشراك بالله وهو الظلم العظيم دعوى من لم يلتفت إلى معنى الاشراك على ما جاء به الكتاب والسنة فالاشراك اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الاسباب الظاهرة وأن لشيء من الاشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعينا به فيما لا يقدر العبد عليه كالاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش، والاستشفاء من الامراض بغير الادوية التي هدانا الله اليها، والاستعانة على السعادة الاخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله لنا، هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ورد الامر فيما فوق القدرة البشرية والاسباب الكونية الى الله وحده وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الاعمال البشرية (الاول) أن العبد يكسب بارادته وقدرته ماهو وسيلة لسعادته و (الثاني) ان قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات وأن من آثارها مايحول بين العبد وبين انفاذ مايريده وأن لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه . جاءت الشريعة لتقرير

ذلك وتحريم ان يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه الى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه وتكليفه أن يرفع همته الى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ماعنده من الجهد في تصحيح الفكر و إجادة العمل ولا يسمح العقل ولا الدين لاحد ان يذهب الى غير ذلك وهذا الذي قررناه قد اهتدى اليه سلف الامة فقاموا من الاعمال بما عجبت له الامم وعول عليه من متأخري أهل النظر امام الحرمين الجويني رحمه الله وان أنكر عليه بعض من لم يفهمه

أكرر القول بأن الايمان بوحدانية الله لا يقتضي من المكلف الا اعتقاد أن الله صرفه في قواه فهو كاسب لايمانه ولما كلفه الله به من بقية الاعمال ، واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته ولها وحدها السلطان الاعلى في اتمام مراد العبد بازالة الموانع أو تهيئة الاسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت ارادته

أما التطلع الى ماهو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الايمان كما بينا وانما هو من شره العقول في طلب رفع الاستار عن الاسرار ولا انكر ان قوما قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك الى ماطمأنت به نفوسهم ، وتقشعت به حيرتهم ، ولكن قليل ماهم . على أن ذلك نور يقذفه الله في قلب من شاء ، ويخص به أهل الولاية والصفاء ، وكثيرا ماضل قوم وأضلوا وكان لمقالاتهم أسوأ الاثر فيما عليه حال الامة اليوم لو شئت لقربت البعيد فقلت ان من بالغ الحكم في الكون ان

تتنوع الانواع على ماهي عليه في العيان ولا يكون النوع ممتازا عن غيره حتى تلزمه خواصه وكذا الحال في تميز الاشخاص فواهب الوجود يهب الانواع والاشخاص وجودها على ماهي عليه ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه ومن تلك الانواع الانسان ومن مميزاته حتى يكون غير سائر الحيوانات أن يكون مفكرا مختارا في عمله على مقتضى فكره فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه ولوسلب شيء منها لكان إما ملكا او حيوانا آخر والفرض انه الانسان فهبة الوجود له لاشيء فيها من القهر على العمل . ثم علم الواجب محيط بما يقع من الانسان بارادته و بان عمل كذا يصدر في وقت كذا وهو خير يثاب عليه وأن عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر والاعمال في جميع الاحوال حاصلة عن الكسب والاختيارفلا شيء في العلم بسالب للتخيير في الكسب وكون مافي العلم يقع لامحالة انما جاء من حيث هو الواقع والواقع لا يتبدل

ولنا في علومنا الكونية أقرب الامثال: شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لاميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة لكنه مع ذلك يعمل العمل و يستقبل العقوبة وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر في اختياره لا بالمنع ولا بالإلزام فانكشاف الواقع للعالم لا يصلح في نظر العقل ملزما ولا مانعاً وانما يريبك الوهم تغيير العبارات وتشعب الالفاظ . ولوشئت لزدت في بيان ذلك ورجوت أن

لا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية لكن يمنعني عن الاطالة فيه عدم الحاجة اليه في صحة الايمان وتقاصر عقول العامة عن ادراك الأمر في ذاته مهما بالغ المعبر في الايضاح عنه والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه إلاّ موافقا لما يعتقدون فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا في مقاومته ، وان أدّى ذلك الى جحد العقل برمته ، فأكثرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد ، فان صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم « ويل للخابط ذلك قلب لسنة الله في خلقه وتحريف لهديه في شرعه » عرتهم هزة من الجزع ثم عادوا الى السكون محتجين بأن هذا هو المألوف ، وما أقمنا الا على معروف ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

حسن الافعال وقبحها

الافعال الانسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الاكوان الواقعة تحت مداركنا وما تنفعل به نفوسنا عند الاحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها في مخيلاتنا وذلك بديهي لا يحتاج الى دليل

نجد في أنفسنا بالضرورة تمييزا بين الجميل من الاشياء والقبيح منها

فان اختلفت مشارب الرجال في فهم جمال النساء أو مشارب النساء في معنى جمال الرجال فلم يختلف أحد في جمال ألوان الأزهار، وتنضيد أوراق النباتات والاشجار، خصوصاً اذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الالوان بعضها مع بعض، ولا في قبح الصورة الممثَّل بها بتهشيم بعض أجزائها وانقطاع البعض الآخر على غير نظام وانفعال أنفسنا من الجميل ببهجة أو إعجاب، ومن القبيح اشمئزازاً وجزع، وكما يقع هذا التمييز في المبصرات، يقع في غيرها من المسموعات والملموسات، والمذوقات والمشمومات، كما هو معروف لكل حساس من بني آدم بإحدى تلك الحواس

ليس هذا موضع تحديد ماهو الجمال وماهو القبيح في الاشياء ولكن لا يخالفنا أحد في أن من خواص الانسان بل و بعض الحيوان التمييز بينهما وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها وبه ارتقى العمران في أطواره الى الحد الذي نراه عليه الآن وان اختلفت الاذواق ففي الأشياء جمال وقبح

هذا في المحسوسات واضح كما سبق . ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة في الوضوح ما يلم به العقل من الموجودات المعقولة وان اختلف اعتبار الجمال فيها فالكمال في المعقولات كالوجود الواجب والأرواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه، وتنبهر له بصائر لاحظيه، وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية وان اختلف أثر الشعور

بعض أطواره في الوجدان عن أثر الاحساس بالقبيح في المحسوسات .
وهل في الناس من ينكر قبح النقص في العقل والسقوط في الهمة وضعف العزيمة . ويكفي أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون في إخفائها ويفخرون أحياناً بأنهم متصفون باضدادها

وقد يجمل القبيح بجمال أثره، ويقبح الجميل بقبح مايقترن به، فالمر قبيح مستبشع، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر، لكن أثر المر في معالجة المرض وعدل الدميم في رعيته او إحسانه اليك في خاصة نفسك يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته فان جمال الأثر يلقي على صاحبه أشعة من بهائه فلا يشعر الوجدان منه الا بالجميل . ومثل ذلك يقال في قبح الحلو اذا أضر، واشمئزاز النفس من الجميل اذا ظلم وأصر،.

هل يمكن لعاقل ان لا يقول في الافعال الاختيارية كما قال في الموجودات الكونية مع أنها نوع منها وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية إما بنفسها وإما بأثرها وتنفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات؟ كلا بل هي قسم من الموجودات حكمها في ذلك حكم سائرها بالبداهة

فمن الافعال الاختيارية ماهو معجب في نفسه تجد النفس منه ما تجد من جمال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة وتقلب المهرة من اللاعبين في الألاعيب المعروفة اليوم « بالجمناستيك » وكايقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها . ومنها ماهو قبيح في نفسه يحس

منه ما يحس من رؤية الخلق المشوه كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع وكولولة النائحات ونقع المذعورين (١)

ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الالم وما هو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الالم فالاول كالضرب الجرح وكل ما يؤلم من أفعال الانسان والثاني كالا كل على جوع والشرب على عطش وكل ما يحصل لذة أو يدفع ألما مما لا يحصي عده وفي هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلذ والقبيح بمعنى المؤلم

وقلما يختلف تمييز الانسان للحسن والقبيح من الافعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية في سلسلة الوجود اللهم الا في قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح

ومن الافعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع وما يقبح بما يجر اليه من الضرر ويختص الانسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعني اذا أخذ من أ كمل وجهاته ، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر اللهم إلا من أحط جهاته ، وهو خاصة العقل وسر الحكمة الالهية في هبة الفكر

فمن اللذيذ ما يقبح لشؤم عاقبته كالإفراط في تناول الطعام والشراب والانقطاع الى سماع الاغاني والجري في اعقاب الشهوات فان ذلك مفسدة للصحة مضيعة للعقل متلفة للمال مدعاة للعجز والذل وانما قبح اللذيذ في هذا الموضع لقصر مدته وطول مدة ما يجر اليه عادة من الآلام

---

(١) نقع المذعورين صياحهم

التي ربما لا تنتهي الا بالموت على أسوإ حالاته ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الالم . ومن المؤلم مايحسن كتجشم مشاق التعب في الاعمال لكسب الرزق وتأمين النفس على حاجاتها في أوقات الضعف ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حينا من الزمن ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب او على نمط يخفف من رزايا الحياة إن عدت الحياة مثارا لها

ومن المؤلم الذي عده العقل البشري حسنا مقارعة الانسان عدوه سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه أو عن انصاره ومنهم بنو أبيه أوقبيلته أوشعبه أوامته حسب ارتقائه في الاحساس، ومخاطرته ولو بحياته في سبيل ذلك كأنه يرى في بذل هذه الحياة أمنا على حياة أخرى تشعر بها نفسه وان لم يحددها عقله . ومنه معاناة التعب في كشف ماعمي عن علمه من حقائق الكون كأنه لايرى المشقة في ذلك شيئا بالقياس الى مايحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد الى ما كسبه الغير بسعيه واستشفاء ألم الحقد باتلاف نفس المحقود عليه أو ماله لما في ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المتعدي ويمكنك من نفسك استحضار ماينبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها

كل هذا عرفه العقل البشري وفرق فيه بين الضار والنافع وسمى الاول فعل الشر والثاني عمل الخير وهذا التفريق هو منبت التميز بين الفضيلة والرذيلة وقد حددهما النظر الفكري على تفاوت في الاجمال والتفصيل للتفاوت في درجات عقول الناظرين وناط بهما سعادة الانسان وشقاءه في هذه الحياة كما ربط بهما نظام العمران البشري وفساده وعزة الامم وذلتها وضعفها وقوتها وان كان المجددون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر

كل هذا من الاوليات العقلية لم يختلف فيه مِلّيّ ولا فيلسوف فللاعمال الاختيارية حسن وقبح في نفسها أو باعتبار أثرها في الخاصة أو في العامة والحس أو العقل قادر على تمييز ماحسن منها وما قبح بالمعاني السابقة بدون توقف على سمع . والشاهد على ذلك مانراه في بعض أصناف الحيوان وما نشهده في أفاعيل الصبيان قبل تعقل مامعنى الشرع وما وصل الينا من تاريخ الانسان وما عرف عنه في جاهليته

ومما يحسن ذكره هنا ماشاهده بعض الناظرين في أحوال النمل قال كانت جماعة من النمل تشتغل في بيت لها فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه فهدم ورفع البنيان الى الحد الموافق ووضع السقف على أرفع مما كان وذلك من أنقاض السقف القديم وهذا هو التمييز بين الضار والنافع . فمن زعم أن لا حسن ولا قبح في الأعمال على

الاطلاق فقد سلب نفسه العقل ، بل عدها أشد حمقاً من النمل

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل فاذا وصل مستدل ببرهانه الى اثبات الواجب وصفاته الغير السمعية ولم تبلغه بذلك رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر ثم انتقل من النظر في ذلك وفي أطوار نفسه الى أن مبدأ العقل في الانسان يبقى بعد موته كما وقع لقوم آخرين ثم انتقل من هذا مخطئا أو مصيباً إلى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعي سعادة لها فيه أو شقاء ثم قال ان سعادتها إنما تكون بمعرفة الله و بالفضائل وانها إنما تسقط في الشقاء بالجهل بالله و بارتكاب الرذائل و بنى على ذلك أن من الأعمال ماهو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ومنها ما هو ضار لها بعده بإيقاعها في الشقاء فأي مانع عقلي أو شرعي يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله إن معرفة الله واجبة وان جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة وان الرذائل وما يكون عنها محظورة وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر الى الاعتقاد بمثل مايعتقد والى ان يأخذ من الأعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه ؟ أما أن يكون ذلك حالا لعامة الناس يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة وأن الفضائل مناط السعادة في الحياة الأخرى والرذائل مدار الشقاء فيها فما لا يستطيع عاقل أن يقول به والمشهود من حال الامم كافة يضلل القائل به في رأيه

لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محدودة كما هي حاجات فيل أو أسد مثلاً وكان ما وهب له من الفكر واقفا عند حد ما إليه الحاجة لاهتدى الى المنافع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده ولسعدت حياته وتخلص كلٌّ من شر الآخر ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع

لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد، ولا تختص معيشته بجو من الاجواء، ولا بوضع من الاوضاع، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله في سد عوزه وتوفير لذاته في أي إقليم وعلى أي حال، وأن يختلف ظهور هذه المدارك في أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافا لا تنتهي درجاته ولولا هذا لما خالف بقية الحيوانات الا باستقامة القامة وعرض الاظفار

وهب الله الانسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان: الذاكرة والمخيلة والمفكرة — فالمذكرة تثير من صور الماضي ما ستره الاشتغال بالحاضر فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه اليه الاشباه أو الاضداد الحاضرة فقد يذكر الشيء بشبهه وقد يذكر بضده كما هو بديهي والخيال يجسم من المذكور وما يحيط به من الاحوال حتى يصير كأنه شاهد ثم ينشيء له مثال لذة أو ألم في المستقبل يحاكي ما ذهب به الماضي ويهمز للنفس في طلبه أو الهرب منه فتلجأ الى الفكر في تدبير الوسيلة اليه

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان ومنها ينبوع بلائه

فمن الناس معتدل الذكر هادئ الخيال صحيح الفكر ينظر مثلا في حال مسرف أنفق ماله في غير نافع وضاقت يده عما يقيم معيشته فيذكر ألما لحاجة مضت ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء في سد حاجاته أو في دفع الالم الذي يحدثه مشهد الفاقة في غيره باعطاء المضطر ما يذهب بضرورته ثم يتخيل ذلك المال آتيا من وجوهه التي لا يتعلق بها حق من حقوق غيره وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة اليه من تلك الوجوه بالعمل القويم في استخدام ماوهبه الله من القوى في نفسه وما سخره له من قوى الكون المحيط به

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال يرى مالاً مثلا في يد غيره فيذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال ويعظم له الخيال لذة مثلها في المستقبل ولا يزال يعظم في تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر فيستتر عنه ماطاب من وجوه الكسب وانما يعمد الى استعمال قوته أو حيلته في سلب المال من يد مالكه لينفقه فيما تخيل من المنفعة فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له وأخلّ بالأمن الذي أفاضه الله بين عباده وسن سنة الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول الى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله . وخفيف من النظر في أعمال البشر يجليها جميعها على نحو ما بينا في المثالين ــ فلقوة الذاكرة وضعفها وحدّة الخيال واعتداله واعوجاج الفكر واستقامته أعظم أثر في التمييز بين النافع والضار في أشخاص الاعمال ، وللامزجة والأجواء وما يحتف

بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم في التخيل والفكر بل وفي الذكر

فالناس متفقون على أن من الاعمال ماهو نافع ومنها ماهو ضارٌّ و بعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق في معرفة ذلك ، ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وان كان مؤلماً في الحال وأن القبيح ماجر الى فساد في النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به وان عظمت لذته الحاضرة ولكنهم يختلفون في النظر الى كل عمل بعينه اختلافهم في أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع مايكتنف بهم فلذلك ضربوا الى الشر في كل وجه وكلٌّ يظن أنه انما يطلب نافعاً و يتقي ضارًّا فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه مافيه سعادته في هذه الحياة اللهم الا في قليل ممن لم يعرفهم الزمن فان كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار اليهم الدهر بأصابع الأجيال وقد سبقت الاشارة اليهم فيما مر

وليست عقول الناس سواء في معرفة الله تعالى ولا في معرفة حياة بعد هذه الحياة فهم وان اتفقوا في الخضوع لقوة أسمى من قواهم وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ولكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسلك السعادة فليس في سعة العقل الانساني في الافراد كافة

أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي ان يفهم ولا ان يقرر لكل نوع من الاعمال جزاءه في تلك الدار الآخرة وانما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل ونور البصيرة وان لم ينل شرف الاقتداء بهدي نبوي ولو بلغه لكان أسرع الناس الى اتباعه وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم الى العرفان من وجه غير ما يليق في الحقيقة أن ينظر منه الى الجلال الالهي

ثم من أحوال الحياة الاخرى مالا يمكن لعقل بشري أن يصل اليه وحده وهو تفصيل اللذائذ والالام وطرق المحاسبة على الاعمال ولو بوجه ما

ومن الاعمال مالا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها كصور بعض العبادات كما يرى في أعداد الركعات و بعض الاعمال في الحج في الديانة الاسلامية وكبعض الاحتفالات في الديانة الموسوية وضروب التوسل والزهادة في الديانة العيسوية كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه و يعلم الله أن فيه سعادته

***

لهذا كله كان العقل الانساني محتاجاً في قيادة القوى الادراكية والبدنية الى ما هو خير له في الحياتين الى معين يستعين به في تحديد أحكام الاعمال وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الالوهية ومعرفة ما ينبغي أن يعرف من أحوال الآخرة و بالجملة في وسائل السعادة في

الدنيا والآخرة ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من بني جنسه ليفهم منه أو عنه ما يقول وحتى يكون ممتازاً على سائر الافراد بأمر فائق على ما عرف في العادة وما عرف في سنة الخليقة ويكون بذلك مبرهنا على أنه يتكلم عن الله الذي يعلم مصالح العباد على ماهي عليه ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغي أن يعرف منها والحياة الآخرة وما أعد فيها فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير معينا للعقل على ضبط ما تشتت عليه أودرك ماضعف عن ادراكه وذلك المعين هو النبي

النبوة تحدد ماينبغي أن يلحظ في جانب واجب الوجود من الصفات وما يحتاج اليه البشر كافة من ذلك وتشير الى خاصتهم بما يمكن لهم ان يفضلوا به غيرهم في مقامات عرفانهم لكنها لا تحتم الا مافيه الكفاية للعامة فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله و بوحدانيته و بالصفات الذي اثبتناها على الوجه الذي بيناه وأرشدت الى طرق الاستدلال على ذلك فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص وحسن المعرفة وخطر الجهالة او الجحود بشيء مما أوجبه الشرع في ذلك وقبحه مما لا يعرف الا من طريق الشرع معرفة تطمئن به النفس ولو استقل عقل بشري بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذي هو عماد الطمانينة فان زيد على ذلك ان العرفان على مابينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه وضده يستحق العقوبة التى نص عليها كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة غير أن ذلك

لا ينافي أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة في نفسها وانما جاء الشرع مبينا للواقع فهو ليس محدث الحسن ونصوصه تؤيد ذلك وأذكر مثالا من كثير قال تعالى على لسان يوسف (١٢ : ٣٩ أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار) يشير بذلك اشارة واضحة الى ان تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم الى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم وهو يذهب بكل فريق الى التعصب لما وجه اليه وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى أما اعتقاد جميعهم باله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم الى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه وفي ذلك نظام أخوتهم وهي قاعدة سعادتهم وإليها مآلهم فيما أعتقد (١) وان طال الزمان فكما جاء الشرع مطالبا بالاعتقاد جاء هاديا لوجه الحسن فيه

النبوة تحدد أنواع الاعمال التى تناط بها سعادة الانسان في الدارين وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود لتي حددتها وكثيرا ماتبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أونهى عنه فوجوب عمل من المأمور به أو الندب اليه وحظر عمل أو كراهته من المنهي عنه على الوجه الذي

(١) كان المؤلف رضي الله عنه يعتقد ان ارتقاء الامم من طريق علوم الكون سينتهي بهم الى التوحيد وسائر ماقرره القرآن من أصول الدين (٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ٥٤ ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط)

حددته الشريعة وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ومجازى عليه بعقوبة كذا مما لا يستقل العقل بمعرفته بل طريقة معرفته شرعية وهو لا ينافي أيضا أن يكون المأمور به حسنا في ذاته بمعنى أنه مما يؤدي الى منفعة دنيوية او اخروية باعتبار أثره في احوال المعيشة أو في صحة البدن او في حفظ النفس أو المال او العرض أو في زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه كما هو مفصل في الاحكام الشرعية. وقديكون من الاعمال مالا يمكن درك حسنه ومن المنهيات مالا يعرف وجه قبحه وهذا النوع لاحسن له الا الامر ولا قبح الا النهي والله أعلم

الرسالة العامة

نريد بالرسالة العامه بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والاحكام عن الله خالق الانسان وموفيه مالاغنى له عنه كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجاتها ووقاء وجودها على القدر الذى حدد لها في رتبة نوعها من الوجود. والكلام في هذا البحث من وجهين (الاول) وهو أيسرهما على المتكلم وجه ان الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الايمان فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد ان الله أرسل رسلا من البشر مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه قاموا بتبليغ أممهم ماأمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده وتفصيل لاحكامه في

فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها وفي نقائص فعال وخلائق ينهاهم عنها ـ وان يعتقدوجوب تصديقهم في انهم بلغون ذلك عن الله ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه ـ وأن يعتقد أن منهم من أنزل الله عليه كتبا تشتمل على ماأراد أن يبلغوه من الخبر عنه ومن الحدود والاحكام التي علم الخير لعباده في الوقوف عندها وان هذه الكتب التي أنزلت عليهم حق ـ وان يومن بانهم مؤيدون من العناية الالهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية وان هذا الامر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدلة على صدق النبي في دعواه فمتى ادعى الرسول النبوة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلوّ فطرتهم وصحة عقولهم وصدقهم في اقوالهم وامانتهم في تبليغ ماعهد اليهم ان يبلغوه وعصمتهم من كل مايشوّه السيرة البشرية وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الابصار وتنفر منه الاذواق السليمة وأنهم منزهون عما يضاد شيئا من هذه الصفات المتقدمة وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الالهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم مايعتري سائر افراده يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لاعلاقة له بتبليغ الاحكام ويمرضون

وتمتد اليهم ايدي الظلمة و ينالهم الاضطهاد وقد يقتل الانبياء

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا فان مخالفة السير الطبيعي المعروف في الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف . فان قيل ان ذلك لابد ان يكون تابعا لناموس آخر طبيعي قلنا إن واضع الناموس هو موجد الكائنات فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات غاية مافي الامر أننا لا نعرفها ولكنا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه ان يحدث الحادث على أيّ هيئة وتابعا لأي سبب اذا سبق في علمه أنه يحدثه كذلك

* المعجزة لابدان تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة . وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده لأن النبي يستند اليها في دعواه أنه مبلغ عن الله فاصدار الله لها عند ذلك يعد تأييدا منه له في تلك الدعوى ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب فان تأييد الكاذب تصديق له وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله(١) فمتى ظهرت المعجزة وهي مما لا يقدر عليه البشر وقارن ظهورها دعوى

(١) يشير المصنف الى ان دلالة المعجزة وضعية لانها بمعنى التصديق بالقول وهو المشهور . وقيل عقلية وقيل عادية

النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها الا تصديقاً لمن ظهرت على يده وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة

وأما السحر وأمثاله فان سلم أن مظاهره فائقة عن آثار الاجسام والجسمانيات فهي لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة في شيء

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للانبياء فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر؟ أومس عقولهم شيء من الضعف لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الالهي الذي يفوق كل اختصاص: اختصاصهم بوحيه والكشف لهم عن أسرار علمه. ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر في انكار دعواهم، ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ولكانوا مضلين لا مرشدين فتذهب الحكمة من بعثتهم. والامر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد اليهم تبليغه من العقائد والاحكام.

أما وقوع الخطإ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل في التشريع فجوزه بعضهم والجمهور على خلافه وما ورد من مثل أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تأبير النخل (١) ثم أباحه لظهور أثره في الإثمار فانما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ولا حظر عليهم فيه مادامت الشرائع مرعية، والفضائل محمية، وما حكاه الله من قصة آدم

---

(١) تأبير النخل تلقيحه والحديث في الصحيح

وعصيانه بالأكل من الشجرة فما خفي فيه سر النهي عن الاكل والمؤاخذة عليه ‐وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سببا لعمارة الارض ببني آدم كأن النهي والاكل رمزان إلى طورين من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران من مظاهر النوع الانساني في الوجود والله أعلم ومن العسر إقامة الدليل العقلي أو إصابة دليل شرعي يقطع بما ذهب اليه الجمهور

حاجة البشر الى الرسالة

سبق لك في الفصل السابق ما يهمّ الكلام عليه من الوجه الاول وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده في الرسل والكلام في هذا الفصل موجه ان شاء الله الى بيان الحاجة اليهم وهو معترك الافهام، ومزلة الاقدام، ومزدحم الكثير من الافكار والاوهام، ولسنا بصدد الإتيان بما قال الاولون، ولا عرض ما ذهب اليه الآخرون، ولكنا نلزم ما التزمنا في هذه الوريقات من بيان المعتقد، والذهاب اليه من أقرب الطرق، من غير نظر إلى ما مال اليه المخالف، أو استقام عليه الموافق، اللهمّ الا إشارة من طرف خفي، أو إلماعا لا يستغني عنه القول الجلي

وللكلام في بيان الحاجة إلى الرسل مسلكان ﴿ الاول ﴾ وقد سبق الاشارة اليه يبتدئ من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم، أو تشقى فيها بعذاب أليم، وأن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية، معقودان بأعمال المرء

في حياته الفانية ، سواء كانت تلك الاعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والارادات ، أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات

اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين مليين وفلاسفة الا قليلا لا يقام لهم وزن على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء ، وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وان اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء ، وفيما تكون عليه النفس فيه ، وتباينت مشاربهم في طرق الاستدلال عليه ، فمن قائل بالتناسخ في أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ، ومن ذاهب الى ان التناسخ ينتهي عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال ، ومنهم من قال انها متى فارقت الجسد عادت الى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها ، ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ، ألطف من هذه الاجسام المرئية ، وكان اختلاف المذاهب في كنه السعادة والشقاء الاخرويين وفيما هو متاع الحياة الآخرة وفي الوسائل التي تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم وتضارب آراء الامم فيه قديماً وحديثاً مما لا تكاد تحصى وجوهه

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث في جميع الانفس عالمها وجاهلها ، وحشيها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لا يمكن ان يعد ضلة عقلية ، أو نزغة وهمية ، وانما هو من الالهامات التي اختص بها هذا النوع . فكما ألهم الانسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه في هذه الحياة الدنيا ـ وإن شذ أفراد منه ذهبوا الى أن العقل والفكر ليسا بكافيين

للارشاد في عمل ما أو الى أنه لا يمكن للعقل ان يوقن باعتقاد، ولا للفكر ان يصل الى مجهول، بل قالوا أن لا وجود للعالم الا في اختراع الخيال وانهم شاكون حتى في أنهم شاكون ولم يطعن شذوذ هؤلاء في صحة الالهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأس البقاء الى الاجل المحدود — كذلك قد أُلهمت العقول وأُشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان في الوجود بل الانسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ثم يكون حياً باقياً في طور آخر وان لم يدرك كنهه. ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء يُشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة، شيقة الى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية، مهيأة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات، معرَّضة لآلام من الشهوات ونزعات الاهواء ونزوات الامراض على الاجساد ومصارعة الاجواء والحاجات، وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد، ولا تنتهي عند حد، إلهامٌ يلفتها بعد هذا الشعور الى أن واهب الوجود للانواع انما قدر الاستعداد بقدر الحاجة في البقاء، ولم يعهد في تصرفه العبث والكيل الجزاف، فما كان استعداده لقبول ما لا يتناهى من معلومات، وآلام ولذائذ وكمالات، لا يصح أن يكون بقاؤه قاصرا على أيام أو سنين معدودات،

شعور يهيج بالارواح الى تحسس هذا البقاء الابدي وما عسي

أن تكون عليه، متى وصلت اليه، وكيف الاهتداء واين السبيل، وقد غاب المطلوب واعوز الدليل، ؟ شعورنا بالحاجة الى استعمال عقولنا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الامد، لم يكفنا في الاستقامة على المنهج الاقوم، بل لزمتنا الحاجة الى التعليم والارشاد، وقضاء الازمنة والاعصار، في تقويم الانظار، وتعديل الافكار، واصلاح الوجدان، وتثقيف الاذهان، ولا نزال الى الآن من هم هذه الحياة الدنيا في اضطراب لا ندري متى نخلص منه، وفي شوق الى طمأنينة لا نعلم متى ننتهي اليها

هذا شأننا في فهم عالم الشهادة فماذا نومل من عقولنا وأفكارنا في العلم بما في عالم الغيب ؟ هل فيما بين ايدينا من الشاهد، معالم نهتدي بها الى الغائب، وهل في طرق الفكر ما يوصل كل أحد الى معرفة ماقدر له في حياة يشعر بها، وبأن لامندوحة عن القدوم عليها، ولكن لم يوهب من القوة ماينفذ الى تفصيل ماأعد له فيها، والشؤون التي لا بد أن يكون عليها بعد مفارقة ماهو فيه او الى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشؤون ؟ هل في أساليب النظر مايأخذ بك الى اليقين بمناطها من الاعتقادات والاعمال، وذلك الكون مجهول لديك، وتلك الحياة في غاية الغموض بالنسبة اليك ؟؛ كلا فان الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة في نظر العاقل، ومرامي المشاعر، ولا اشتراك بينهما الا فيك أنت، فالنظر في المعلومات الحاضرة، لا يوصل الى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة

أفليس من حكمة الصانع الحكيم، الذي أقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليم، الذى خلق الانسان، وعلمه البيان، علمه الكلام للتفاهم، والكتاب للتراسل، أن يجعل من مراتب الانفس البشرية مرتبة يعدّ لها بمحض فضله، بعض من يصطفيه من خلقه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته؟ يميزهم بالفطر السليمة، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه، والامانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه، فيشرفون على الغيب باذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد، وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها، ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفي على العقول من شؤون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه وما قدر أن يكون له مدخل في سعادتهم الاخروية، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم، ولا يبعد عن متناول أفهامهم، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم، وكبح شهواتهم، وتعلمهم من الاعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم، في ذلك الكون المغيب من مشاعرهم بتفصيله، اللاصق علمه باعماق ضمائرهم في إجماله، ويدخل في ذلك جميع الاحكام المتعلقة بكليات الاعمال ظاهرة وباطنة، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من

الآيات حتى تقوم بهم الحجة، ويتم الاقناع بصدق الرسالة، فيكونون بذلك رسلا من لدنه الى خلقه مبشرين ومنذرين ؟؟

لا ريب ان الذي أحسن كل شيء خلقه، وأبدع في كل كائن صنعه، وجاد على كل حي بما اليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه، يكون من رأفته بالنوع الذي أجاد صنعه، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التي اختص بها غيره، أن ينقذه من حيرته ، ويخلصه من التخبط في أهم حياتيه، والضلال في أفضل حاليه

يقول قائل ولم لم يودع في الغرائز ما تحتاج اليه من العلم ولم يضع فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية في الحياة الآخرة ؟ وما هذا النحو من عجائب الرحمة في الهداية والتعليم؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل، والغفلة عن موضوع البحث ، وهو النوع الانساني. ذلك النوع على ما به، وما دخل في تقويم جوهره من الروح المفكر، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف في مراتب الاستعداد باختلاف أفراده ، وأن لا يكون كل فرد منه مستعدا لكل حال بطبعه، وان يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال ، فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع بل كان إما حيوانا آخر كالنحل والنمل أو ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الارض

﴿ المسلك الثاني في بيان الحاجة الى الرسالة ﴾

يوخذ من طبيعة الانسان نفسه

أرتنا الايام غابرها وحاضرها أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر وينقطع الى بعض الغابات أوالى رءوس الجبال ويستأنس الى الوحش ويعيش عيش الاوابد من الحيوان يتغذى بالاعشاب وجذور النبات، ويأوي الى الكهوف والمغاور، ويتقي بعض العوادي عليه بالصخور والاشجار، ويكتفي من الثياب بما يخصف من ورق الشجر، أوجلود الهالك من حيوان البر، ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا. ولكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدَّبر(١) وتعيش عيشة لا تتفق مع ما قدر لنوعها، وانما الانسان نوع من تلك الانواع التي غرز في طبعها أن تعيش مجتمعة وان تعددت فيها الجماعات على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع في بقائه، وللمجموع من العمل ما لا غنى للواحد عنه في نمائه وبقائه، وأودع في كل شخص من أشخاصها شعورٌ مّا بحاجته الى سائر أفراد الجماعة التي يشملها اسم واحد . وتاريخ وجود الانسان شاهد بذلك فلا حاجة الى الاطالة في بيانه وكفاك من الدليل على أن الانسان لا يعيش الا في جملة ما وهبه من قوة النطق فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير

---

(١) الدبر بالفتح والكسر جماعة النحل وكذا الزنابير

المعاني في الالفاظ وتأليف العبارات الا لاشتداد الحاجة به الى التفاهم وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر الا الشهادة بأن لاغنى لاحدهم عن الآخر

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائرها مما لا يشتبه فيه وكلما كثرت مطالب الشخص في معيشته ازدادت به الحاجة الى الايدي العاملة فتمتد الحاجة وعلى اثرها الصلة من الاهل الى العشيرة ثم الى الامة والى النوع بأسره. وأيامنا هذه شاهدة على ان الصلة التابعة للحاجة قد تعم النوع كما لا يخفى. هذه الحاجة خصوصا في الامة التي حققت عنوانها لها صلات وعلائق ميزتها عمن سواها: حاجة في البقاء، حاجة في التمتع بمزايا الحياة، حاجة في جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع

لو جرى أمر الانسان على اساليب الخلقة في غيره لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده، عاملا يشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل. فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخرة لمنافعها ودرء مضارها، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب، هي الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر، الناهض بكل منهما للمدافعة عنه في حالة الخطر، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظ النظام الامم وروحا لبقائها، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب أو ما تحب فان اشتدت كانت ولعا وعشقا

لكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين إذا كانت

الحاجة الى ذات المحبوب أو ماهو فيها لا يفارقها، ولا يكون هذا النوع منها في الانسان الا اذا كان منشؤه أمرا في روح المحبوب وشمائله التي لاتفارق ذاته حتي تكون لذة الوصول في نفس الاتصال لا في عارض يتبعه . فاذا عرض التبادل والتعاوض ولوحظ في العلاقة بينهما تحولت المحبة الى رغبة في الانتفاع بالعوض وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع وقام بين الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين

يحب الكلب سيده ويخلص له و يدافع عنه دفاع المستميت لما يرى أنه مصدر الاحسان اليه في سداد عوزه فصورة شبعه و ريه وحمايته مقرونة في شعوره بصورة من يكفلها له فهو يتوقع فقدها بفقده فيحرص عليه حرصه على حياته ولو أنه انتقل من حوزته الى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضا لخطر ما عادت اليه تلك الصور يصل بعضها بعضا واندفع الى خلاصه بما تمكنه القوة

ذلك لان الالهام الذي هدي به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب فوجدانه يتردد بين الاحسان ومصدره وليس له وراءهما مذهب، فحاجته في سد عوزه، هي حاجته الى القائم بأمره، فيحبه محبته لنفسه، ولا يبخس منها شوب التعاوض في الخدمة

أما الانسان وما أدراك ماهو فليس أمره على ذلك، ليس ممن يلهم ولا يتعلم، ولا ممن يشعر ولا يتفكر، بل كان كماله النوعي في اطلاق

مداركه عن القيد ومطالبه عن النهايات، وتسليمه على صغره، الى العالم الاكبر على جلالته وعظمه، يصارعه بعوامله وهي غير محصورة، حتى يعتصر منه منافعه وهي غير محدودة، وايداعه من قوى الادراك والعمل ما يعينه على المغالبة، ويمكنه من المطالبة، بسعيه ورأيه، ويتبع ذلك أن يكون له في كل كائن مما يصل اليه لذة، وبجوار كل لذة ألم ومخافة، فلا تنتهي رغائبه الى غاية، ولا تقف مخاوفه عند نهاية، (٧٠: ١٩ إن الانسان خلق هلوعاً ٢٠ اذا مسه الشر جزوعاً ٢١ واذا مسه الخير منوعاً) تفاوتت أفراده في مواهب الفهم، وفي قوى العمل وفي الهمة والعزم، فمنهم المقصر ضعفا أو كسلا، المتطاول في الرغبة شهوة وطمعا، يرى في أخيه أنه العون له على ما يريد من شؤون وجوده، لكنه يذهب من ذلك الى تخيل اللذة في الاستئثار بجميع ما في يده، ولا يقنع بمعاوضته في ثمرة من ثمار عمله، وقد يجد اللذة في أن يتمتع ولا يعمل، ويرى الخير في ان يقيم مقام العمل، إعمال الفكر في استنباط ضروب الحيل، ليتمتع، وان لم ينفع، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له ان لاضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته، ولا يبالي بارساله الى عالم العدم بعد سلبه، فكلما حثه الذكر والخيال الى دفع مخافة او الوصول الى لذيذ فتح له الفكر بابا من الحيلة، او هيأ له وسيلة لاستعمال القوة، فقام التناهب، مقام التواهب، وحل الشقاق، محل الوفاق، وصار الضابط لسيرة الانسان إما الحيلة واما القهر

هل وقف الهوى بالانسان عند التنافس في اللذائذ الجسدانيه وتجالد افراده طمعا في وصول كل الى مايظنه غاية مطلبه وان لم تكن له غاية ؟ كلاولكن قدر لهان تكون لهلذائذروحانية ، وكان من أعظم همه ان يشعر بالكرامة له في نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ماحسبما يمتداليه نظره. وقدبلغت بهذه الشهوة حدا من الانفس كادت تتغلب على جميع الشهوات ، وأخذت لذة الوصول اليها من الارواح مكانا كاد لاتصعد اليه سائر اللذات ، وهي من افضل العوامل ، في احراز الفضائل ،وتمكين الصلات بين الافراد والامم لو صرفت فيما سيقت لاجله ، ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للاسباب التي اشرنا اليهامن التفاوت في مراتب الادراك والهمة والعزيمة حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى الى اعلاء منزلته في القلوب بإخافة الامن ، وإزعاج الساكن ، واشعار القلوب رهبة المخافة ، لاتهيب الحرمة

هل يمكن مع هذا ان يستقيم أمر جماعة بني نظامهم وعلق بقاؤهم في الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضا في الاعمال؟ أو لاتكون هذه الافاعيل السابق ذكرها سببا في تفانيهم؟ لاريب ان البقاء على تلك الاحوال ، من ضروب المحال ، فلا بد للنوع الانساني في حفظ بقائه من المحبة او ماينوب منابها .

لجأ بعض أهل البصيرة في أزمنة مختلفة الى العدل وظنوا كما ظن بعض العارفين ونطق به في كلمة جليلة ان العدل نائب المحبة . نعم لا يخلو

القول من حكمة ولكن من الذي يضع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها ؟ قيل ذلك هو العقل فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء كذلك تكون وسائل السعادة، وفيها مستقر السكينة، وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم، وقوة العقل وأصالة الحكم، تذهب بكثير من الناس الى ماوراء حجب الشهوات، وتعلو بهم فوق ماتخيله المخاوف، فيعرفون لكل حق حرمته ، ويميزون بين لذة مايفنى، ومنفعة مايبقى، وقد جاء منهم افراد في كل امة، وضعوا اصول الفضيلة، وكشفوا وجوه الرذيلة، وقسموا اعمال الانسان الى ماتحضر لذته، وتسوء عاقبته، وهو مايجب اجتنابه، والى ماقد يشق احتماله، ولكن تسر مغباته، وهو مايجب الاخذ به، ومنهم من انفق في الدعوة الى رأيه نفسه وماله، وقضى شهيد إخلاصه في دعوة قومه إلى مايحفظ نظامهم ، فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها وبذلك يستقيم أمر الناس

هذا قول لا يجافي الحق ظاهره، ولكن هل سمع في سيرة الانسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم لرأي العاقل لمجرد أنه الصواب؟ وهل كفى في إقناع جماعة منه كشعب لموأمة قول عاقلهم إنهم مخطئون وإن الصواب فيما يدعوهم اليه ؟ وان أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء، وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء ، ؟ كلاّ لم يعرف ذلك في تاريخ الانسان ولا هو مما ينطبق على سنته

فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس في الادراك ، وهم مع ذلك يدعون المساواة في العقول، والتقارب في الاصول ، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل، إلا كما يعرف من أمر الجاهل، ومن لم يكن في مرتبتك من العقل، لم يذق مذاقك من الفضل، فمجرد البيان العقلي لا يدفع نزاعاً ولا يرد طمأنينة. وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها ويتهدم بناؤها ويفقد ما قصد بوضعها

أضف الى ما سبق من لوازم نزعات الفكر ونزغات الاهواء شعورا هو ألصق بالغريزة البشرية واشد لزوما لها: كل انسان مهما علا فكره، وقوي عقله، أو ضعفت فطنته، وانحطت فطرته، يجد من نفسه انه مغلوب لقوة أرفع من قوته، وقوة ما أنس منه الغلبة عليه مما حوله، وأنه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم في وجوه ربما لا تعرفها معرفة العارفين، ولا تتطرف اليها ارادة المختارين، تُشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ولا سبيل لها الا الطريق التي حددت لنوعها وهي طريق النظر. فذهب كلٌ في طلبها وراء رائد الفكر فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات لكثرة نفعها أو شدة ضررها، ومنهم من تمثلت له في بعض الكواكب لظهور أثرها، ومنهم من حجبته الاشجار والاحجار لاعتبارات له فيها، ومنهم من

تبدت له آثار قوى مختلفة، في أنواع متفرقة، تتماثل في أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الانواع فجعل لكل نوع إلها. ولكن كلما رق الوجدان، ولطفت الاذهان، ونفذت البصائر، ارتفع الفكر وجلت النتائج، فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هذه القدرة الباهرة واهتدى الى أنها قدرة واجب الوجود. غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه، فلم يسلم من الخبط فيه، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة في قومه، ما يحملهم على الاهتداء بهديه، فبقي الخلاف ذائعا، والرشد ضائعا، اتفق الناس في الاذعان لما فاق قُدَرهم، وعلا متناول استطاعتهم، لكنهم اختلفوا في فهم ما تلجئهم الفطرة الى الاذعان له اختلافا كان أشد أثرا في التقاطع بينهم وإثارة أعاصير الشقاق فيهم من اختلافهم في فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم

ان كان الانسان قد فطر على أن يعيش في جملة ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل و بعض أفراد النمل مثلا من الالهام الهادي الى ما يلزم لذلك وانما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ما سبق كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها الى معرفته ولم يفض عليه مع ذلك الشعور عرفانه بذات ذلك القاهر ولا صفاته وانما ألقى به في مطارح النظر تحمله الافكار في مجاريها وترمي به الى حيث يدري ولا يدري وفي كل ذلك الويل على جامعته والخطر على وجوده، افهل مني هذا النوع بالنقص ورزئ بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها في منازل

الوجود ؟ نعم هو كذلك لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه

الانسان عجيب في شأنه: يصعد بقوة عقله الى أعلى مراتب الملكوت، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت، ويسامي بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الاعظم، ثم يصغر ويتضاءل وينحط الى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر مّا لم يعرف سببه، ولم يدرك منشأه، ذلك لسر عرفه المستبصرون، واستشعرته نفوس الناس أجمعين،

من ذلك الضعف قيد الى هداه، ومن تلك الضعة أخذ بيده الى شرف سعادته، أكمل الواهب الجواد لجملته ما اقتضت حكمته في تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أن ينقص من أفراده وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس لينظر في طلب اللقمة وستر العورة والتوقي من الحر والبرد جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة في البقاء، وآثر في الوقاية من غوائل الشقاء، واحفظ لنظام الاجتماع، الذي هو عماد كونه بالاجتماع، من منّ عليه بالنائب الحقيقي عن المحبة بل الراجع بها الى النفوس التي أقفرت منها، لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم وأيد ذلك زيادة في الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطريق على سوابق العقول، فيستخذي الطامح، ويذل الجامح، ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع الى رشده، وينبهر لها بصر

الجاهل فيرتد عن غيه، يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ويدهشون المدارك ببواهر من آياته، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الاذعان له، ويستوي في الركون لما يجيئون به المالك والمملوك، والسلطان والصعلوك، والعاقل والجاهل، والمفضول والفاضل، فيكون الاذعان لهم أشبه بالاضطراري منه بالاختياري النظري، يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم وما أراد أن يعلموه من شؤون ذاته وكمال صفاته وأولئك هم الانبياء والمرسلون = فبعثة الانبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان ومن أهمّ حاجاته في بقائه، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص . نعمة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد

امكان الوحي

الكلام في امكان الوحي يأتي بعد تعريفه لتصوير المعنى الذي يراد منه ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معنى المصدر نفسه ولا يعنينا ما تثيره الالفاظ في الاذهان ولنذكر من اللغة ما يناسبه. يقال وحيت اليه وأوحيت اذا كلمته بما تخفيه عن غيره والوحي مصدر من ذلك والمكتوب والرسالة وكل ما ألقيته الى غيرك ليعلمه ثم غلب فيما يلقى الى الانبياء من قبل الله. وقيل: الوحي إعلام في خفاء. ويطلق ويراد به الموحي. وقد عرفوه شرعاً أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه. أما نحن فنعرفه

على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة. والاول بصوت يتمثل لسمعه (١) أو بغير صوت. ويفرق بينه وبين الالهام بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى مايطلب على غير شعور منها من أين أتى وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور. أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحي) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك وسهولة فهمه عند العقل فلا أراه مما يصعب ادراكه الا على من لا يريد أن يدرك ويحب أن يرغم نفسه الفهّامة على أن لا تفهم. نعم يوجد في كل أمة وفي كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص في العلم الى ما وراء سواحل اليقين فيسقطون في غمرات من الشك في كل مالم يقع تحت حواسهم الخمس بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها كما سبقت الاشارة اليه فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا الى ماهو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان فينسون العقل وشؤونه وسره ومكنونه ويجدون في ذلك لذة الاطلاق عن قيود الاوامر والنواهي بل عن محابس الحشمة التي تضمهم الى التزام ما يليق وتحجزهم عن مقارفة ما يليق كما هو حال غير الانسان من الحيوان. فاذا عرض عليهم شيء من الكلام في النبوات والاديان وهم من أنفسهم هامّ بالاصغاء

(١) كصلصلة الجرس أو كلام الملك كما ورد في الحديث الثاني من صحيح البخاري اهـ من هامش نسخة المؤلف

دافعوه بما أوتوا من الاختيار في النظر وانصرفوا عنه وجعلوا أصابعهم في آذانهم حذر أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة وتتبعها الشريعة فيحرموا لذة ماذاقوا وما يحبون أن يتذوقوا وهو مرض في الانفس والقلوب يستشفى منه بالعلم ان شاء الله

قلت أي استحالة في الوحي وأن ينكشف لفلان مالا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة

مماشهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضاً وأن الادنى منها لا يدرك ما عليه الاعلى إلا على وجه من الاجمال وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه. ولاشبهة في أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرقى منه ولا تزال المراتب ترتقي في ذلك الى مالا يحصره العدد وان من أرباب الهمم وكبار النفوس مايرى البعيد عن صغارها قريباً فيسعى اليه ثم يدركه والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايته ثم يألفون ماصار اليه كأنه من المعروف الذي لا ينازع ، والظاهر الذي لا يجاحد ، فاذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم في بادئ الامر على من دعاهم اليه ، ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً في كل أمة الى اليوم

فاذا سلم « ولا محيص عن التسليم » ما اسلفناه من المقدمات فمن

ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول إليها ان لا يسلم بأن من النفوس البشرية مايكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ماتستعد به من محض الفيض الالهي لان تتصل بالافق الاعلى، وتنتهي من الانسانية الى الذروة العليا، وتشهد من أمر الله شهود العيان، مالم يصل غيرها الى تعقله او تحسسه بعصا الدليل والبرهان، وتتلقى عن العليم الحكيم، مايعلو وضوحا على مايتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم، ثم تصدر عن ذلك العلم الى تعليم ماعلمت، ودعوة الناس الى ما حملت، على ابلاغه اليهم وأن يكون ذلك سنة الله في كل أمة وفي كل زمان على حسب الحاجة: يظهر برحمته من يختصه بعنايته، ليفي للاجتماع بما يضطر اليه من مصلحته، الى ان يبلغ النوع الانساني أشُدَّه، وتكون الاعلام التي نصبها لهدايته الى سعادته كافية في ارشاده، فتختم الرسالة، ويغلق باب النبوة، كما سنأتي عليه في رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم

أما وجود بعض الارواح العالية – وهم الملائكة المكرمون – وظهورها لاهل تلك المرتبة السامية فمما لا استحالة فيه بعد ماعرفنا من انفسنا وارشدنا اليه العلم قديمه وحديثه من اشتمال الوجود على ماهو ألطف من المادة وان غيب عنا فاي مانع من ان يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقا لشيء من العلم الالهي وأن يكون لنفوس الانبياء اشراف عليه فاذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الاذعان بصحته

أما تمثل الصوت وأشباح لتلك الارواح في حس من اختصه الله

بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الانبياء مالا يبعدعنه في بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل في خيالهم ويصل الى درجة المحسوس فيصدق المريض في قوله انه يرى ويسمع بل يجالد ويصارع ولا شيء من ذلك في الحقيقة بواقع فان جاز التمثل في الصور المعقولة ولا منشأ لها الا في النفس، وان ذلك يكون عند عروض عارض على المخ، فلم يجوز تمثل الحقائق المعقولة في النفوس العالية وأن يكون ذلك لها عند ما تنزع عن عالم الحس، وتتصل بحظائر القدس، وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل في أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد في مزاج غيرهم؟ وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف في تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله بل يتحتم لأن شأنهم في الناس أيضا غير الشؤون المألوفة وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم. والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنه أن أمراض القلوب تشفى بدوائهم، وان ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوّة في اممهم التي تأخذ بمقالهم، ومن المنكر في البديهة أن يصدر الصحيح من معتلّ، ويستقيم النظام بمختلّ

أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الانبياء، ولكنهم رضوا ان يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظه من الانس، بما يقارب تلك

الحال في النوع أو الجنس، لهم مشارفة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها في الواقع فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الانبياء صلوات الله عليهم. ومن ذاق عرف، ومن حرم انحرف، ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الاثر الصالح منهم، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح، أو يمجه الذوق السليم، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم، المتلألئ في بصائرهم، إلى دعوة من يحف بهم الى ما فيه خير العامة، وترويح قلوب الخاصة، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم، ويسوء مآلهم، ومآل من غرّروا به ولا يكون لهم الاّ سوء الاثر في تضليل العقول وفساد الاخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزؤا بهم. الا أن يتداركهم الله بلطفه فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار = فلم يبق بين المنكرين لأحوال الانبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بامكان ما أنبؤا به بل وبوقوعه الاحجاب من العادة، وكثيرا ما حجب العقول حتى عن ادراك أمور معتادة

وقوع الوحي والرسالة

الدليل على رسالة نبي وصدقه فيما يحكي عن ربه ظاهر للشاهد الذي يرى حاله ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ويحقق بالعيان، ما يغنيه

عن البيان، كماسلف في الوجــه الأوّل من الـكلام على الرسالة. أما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر وهو كما تبين في عــلم آخر رواية خبر عن مشهود(١) من جماعة يستحيل تواطؤهم على الـكذب وآيته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه كالاخبار بوجود مكة أو بأن للصين عاصمة تسمى «بكين» وسبب استحالة التواطؤ على الـكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ومرجع كل ذلك الى العدد و بعد الراوي عن التشيع لمضمون الخبر

لا نزاع بين العقلاء في أن هذا النوع من الاخبار يحصل اليقين بالمخبر به وانمــا النزاع في اعتبارات تتعلق به . ومن الانبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كابراهيم وموسى وعيسى. ومما جاء به الخبر أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالاقوى سلطانا ولا بالاكثر مالا ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا اليه وغاية الامر أنهم لم يكونوا من الادنين الذين تعافهم النفوس وتنبو عنهــم الانظار ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم و وفرة المال لديه واستعلائه عليهم بما كسب من العــلم قاموا بدعوة الى الله على رغم الملوك وأجنادهم وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم في عروشهم وادّعوا انهم يبلغون عن خالق السموات والارض ما أراد شرعه للناس وأقاموا من الدليل ما تصاغرت

(١) قوله المشهود خاص يراد به العامّ وهو المحسوس كإخبار من سمعوا قولا بأنهم سمعوه ومنه تواتر القرآن والاخبار

دونه قوة المعارضة ثم ثبتت في الكون شرائعهم ثبات الغريزة في الفطر وكان الخير لأممهم في اتباع ما جاؤا به. حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها، ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها، فهذا وما أقاموه من الادلة عند التحدي لا يصح معه في العقل أن يكونوا كاذبين في حديثهم عن الله، ولا في دعواهم أنه كان يوحي اليهم ماشرعوا للناس، على أن من لا يعتقد ما يقول، لا يبقى لمقاله اثر في العقول، والباطل لا بقاء له الا في الغفلة عنه، كالنبات الخبيث في الارض الطيبة ينبت باهمالها، وينمو باغفالها، فاذا لامستها عناية الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء، ولكن تلك الديانات التي جاء بها أولئك الانبياء قامت في العالم الانساني ما شاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه مع كثرة المعارضين، وقوة سلطان المغالبين، فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة، وكلامنا هذا في جوهرها الذي يلوح دائما في خلال ما ألحق بها المبتدعون، أما بقية الرسل ممن يجب علينا الايمان بهم فيكفي في إثبات نبوتهم إثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به. وسنأتي على الكلام في رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى باب على حدته إن شاء الله

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم في حاجة العالم الانساني الى الرسل أنهم من الامم

بمنزلة العقول من الاشخاص وان بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها، ونعمة من واهب الوجود ميز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه، ولكنها حاجة روحية وكل مالامس الحس منها فالقصد فيه الى الروح وتطهيرها من دنس الاهواء الضالة وتقويم ملكاتها أو إيداعها مافيه سعادتها في الحياتين. أما تفصيل طرق المعيشة والحذق في وجوه الكسب وتطاول شهوات العقل الى درك ماأعد للوصول اليه من أسرار العلم فذلك مما لادخل للرسالات فيه إلا من وجه العظة العامة والارشاد الى الاعتدال فيه وتقرير ان شرط ذلك كله أن لا يحدث ريبا في الاعتقاد بان للكون إلها واحدا قادرا عالما حكيما متصفا بما اوجب الدليل أن يتصف به وباستواء نسبة الكائنات اليه في أنها مخلوقة له وصنع قدرته وانما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال وشرطه ان لاينال شيء من تلك الاعمال السابقة أحدا من الناس بشرّ في نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الامة على ماحدد في شريعتها

يرشدون العقل الى معرفة الله وما يجب ان يعرف من صفاته ويبينون الحد الذي يجب ان يقف عنده في طلب ذلك العرفان (١) على وجه لا يشق عليه الاطمئنان اليه (٢) ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من

---

(١) هو ان لا يبحث عن كنه ذاته وصفاته كما تقدم (٢) لانه لا يصل الى المستحيل الذي يتوقف التسليم به على نبذ العقل الذي هو مشرق الايمان

القوة ، يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه ، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده ، وينهضون نفوسهم الى التعلق به في جميع الاعمال والمعاملات ، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الاوقات ، تذكرة لمن ينسى ، وتزكية مستمرة لمن يخشى ، تقوي ماضعف منهم وتزيد المستيقن يقينا

يبينون للناس مااختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم ، فيفصلون في تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ، ويؤيدون بما يبلغون عنه ماتقوم به المصالح العامة ، ولا تفوت به المنافع الخاصة ، (١) يعودون بالناس الى الالفة ، ويكشفون لهم سر المحبة ، ويلفتونهم الى ان فيها انتظام شمل الجماعة ، ويفرضون عليهم مجاهدة انفسهم ليستوطنوها (٢) قلوبهم ، ويشعروها أفئدتهم ، يعلمونهم لذلك أن يرى كل حق الآخر وإن كان لا يغفل حقه ، وأن لا يتجاوز في الطلب حده ، وأن يعين قويهم ضعيفهم ، ويمد غنيهم فقيرهم ، ويهدي راشدهم ضالهم ، ويعلم عالمهم جاهلهم

يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة يسهل عليهم ان يردوا اليها أعمالهم كاحترام الدماء البشرية الا بحق مع بيان الحق الذي تهدر له ، وحظر تناول شيء مما كسبه الغير الا بحق مع بيان الحق الذي يبيح تناوله ، واحترام الأعراض ، مع بيان ما يباح وما يحرم من الابضاع ، ويشرعون لهم مع

(١) أي كالزكاة (٢) اي المحبة

ذلك ان يقوّموا انفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والامانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود(١) والرحمة بالضعفاء، والاقدام على نصيحة الاقوياء، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء (٢)

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية ، الى طلب الرغائب السامية ، آخذين في ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والانذار والتبشير حسبما أمرهم الله جل شأنه

يفصلون في جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم، وما يعرضهم لسخطه عليهم، ثم يحيطون بيانهم بنبإ الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع في محظوراته. يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده في العلم به(٣) مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده

بهذا تطمئن النفوس وتثلج الصدور، ويعتصم المرزوء بالصبر، انتظارا لجزيل الاجر، أو إرضاء لمن بيده الامر، وبهذا ينحل أعظم مشكل في الاجتماع الانساني (٤) لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حله الى اليوم

(١) ومنها المعاهدات الدولية مع الاجانب (٢) اي لا فرق بين مسلم وكافر في ذلك (٣) كالملائكة والجن واحوال الآخرة (٤) يعني مشكل العمال وما نشأ عنه من الاشتراكية والفوضوية بأنواعها واوربا كلها في حيرة من تلافي هذا الامر ولا تمكن ملافاته الا بالدين الاسلامي الذي فرض الزكاة وامر بالصدقة وهدى النفوس الى الرضى بما قسم لها طلبا لسعادة الآخرة مع بذل الجهد في السعي

ليس من وظائف الرسل ماهو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات فليس مما جاؤا له تعليم التاريخ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ، ولا ما استكن من طبقات الارض ، ولا مقادير الطول فيها والعرض، ولا ما تحتاج اليه النباتات في نموها ، ولا ما تفتقر اليه الحيوانات في بقاء اشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له تلك العلوم، وتسابقت في الاصول الى دقائقه الفهوم، فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة هدى الله اليه البشر بما أودع فيهم من الادراك يزيد في سعادة المحصلين، ويقضي فيه بالنكد على المقصرين، ولكن كانت سنة الله في ذلك ان يتبع(١) طريقة التدرج في الكمال وقد جاءت شرائع الانبياء بما يحمل على الاجمال بالسعي فيه وما يكفل التزامه بالوصول الى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء

أما ماورد في كلام الانبياء من الاشارة الى شيء مما ذكرنا في أحوال الافلاك او هيئة الارض فانما يقصد منه النظر الى مافيه من الدلالة على حكمة مبدعه أو توجيه الفكر الى الغوص لادراك اسراره وبدائعه . وحالهم عليهم الصلاة والسلام في مخاطبة أممهم لا يجوز أن تكون فوق مايفهمون والا ضاعت الحكمة في ارسالهم ولهذا قد يأتي التعبير الذي سيق الى العامة بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة، وكذلك ماوجه الى الخاصة، يحتاج الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة ، وهذا القسم أقل ماورد في كلامهم

(١) ضمير الفاعل راجع الى ماذكر من العلوم

على كل حال لا يجوز ان يقام الدين حاجزا بين الارواح و بين ماميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان بل يجب ان يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان، مطالبا لها باحترام البرهان، فارضا عليها ان تبذل ماتستطيع من الجهد في معرفة مابين يديها من العوالم، ولكن مع التزام القصد، والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين

﴿ اعتراض مشهور ﴾

قال قائل ان كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكمالا لنظام اجتماعهم وطريقا لسعادتهم الدنيوية والاخروية فما بالهم لم يزالوا أشقياء، عن السعادة بعداء، يتخالفون ولا يتفقون، يتقاتلون ولا يتناصرون، يتناهبون ولا يتناصفون، كلٌّ يستعد للوثبة، ولا ينتظر الى مجيء النوبة، حشو جلودهم الظلم، وملء قلوبهم الطمع، عد اهل كل ذي دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه، واتخذوا منه سببا جديدا للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم وتختلف مذاهبهم في فهمه، وتتفارق عقولهم في عقائدهم، ويثور بينهم غبار الشر، وتتشبث أهواؤهم بالفتن، فيسفكون دماءهم، ويخربون ديارهم، الى ان يغلب قويهم ضعيفهم فيستقر الامر للقوة لا للحق والدين . فهاهو

الدين الذي تقول انه جامع الكلمة ورسول المحبة كان سببا في الشقاق ومضرما للضغينة فما هذه الدعوى وما هذا الاثر ؟؟

نقول في جوابه نعم كل ذلك قد كان ولكن بعد زمن الانبياء وانقضاء عهدهم ووقوع الدين في أيدي من لا يفهمه أو يفهمه يغلو فيه أولا يغلو فيه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الانبياء أنفسهم أو الخيرة من تبعتهم والا فقل لنا أي نبي لم يأت أمته بالخير الجم، والفيض الاعم، ولم يكن دينه وافيا بجميع ما كانت تمس اليه حاجتها، في أفرادها وجملتها؟

أظن أنك لا تخالفنا في أن الجمهور الاعظم من الناس بل الكل إلا قليلاً لا يفهمون فلسفة أفلاطون ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق ارسطو بل لو عرض أقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتي بها معبر لما أدركوا منها إلا خيالاً لا أثر له في تقويم النفس، ولا في اصلاح العمل، فاعتبر هذه الطبقات في حالها التي لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها، ثم انصب نفسك واعظا بينها، في تخفيف بلاء ساقه النزاع اليها، فأي الطرق أقرب اليك في مهاجمة شهواتهم وردّها الى الاعتدال في رغائبها ؟ من البديهي أنك لا تجد الطريق الاقرب فى بيان مضارّ الاسراف فى الرغب، وفوائد القصد فى الطلب، وما ينحو نحو ذلك مما لا يصل اليه أرباب العقول السامية الا بطويل

النظر . وانما تجد أقصد الطرق وأقومها أن تأتي اليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب ، فتذكره بقدرة الله الذي وهبه ما وهب، الغالب عليه في ادنى شوونه اليه ، المحيط بما في نفسه، الآخذ بأزمة همه، وتسوق اليه من الامثال في ذلك مايقرب إلى فهمه، ثم تروي له ما جاء في الدين المعتقـد به من مواعظ وعبر ، ومن سير السلف في ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة ، وتنعش روحه بذكر رضا الله عنه إذا استقام، وسخطه عليه اذا تقحم، عند ذلك يخشع منه القلب، وتدمع العين ، و يستخذي الغضب، وتخمد الشهوة، والسامع لم يفهم من ذلك كله الا أنه يرضي الله وأولياءه اذا أطاع، و يسخطهم اذا عصى ، ذلك هو المشهود من حال البشر غابرهم وحاضرهم ، ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم،

كم سمعنا أن عيوناً بكت، وزفرات صعدت، وقلوباً خشعت لواعظ الدين . لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدي نصاح الأدب وزعماء السياسة ؟ متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم ، لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ، و ينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك، هذا أمر لم يعهد في سير البشر ولا ينطبق على فطرهم ، و إنما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد(١) ولا قيام للاثنين إلا بالدين فعامل الدين هو أقوى العوامل في أخلاق العامة بل والخاصة وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذي هو خاصة نوعهم

(١) التقاليد هي العادات الموروثة . قاله المؤلف في الدرس

قلنا ان منزلة النبوات من الاجتماع هي منزلة العقل من الشخص أو منزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك ، بل نصعد الى ما فوق ذلك ونقول منزلة السمع والبصر، أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر، و بين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة، ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره فيتردّى في هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان في وجهه . يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج وعناد . وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرّة شيء ويعلم ذلك الباغي في رأيه من أهل الشر ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها ، ولكن وقوع هذه الامثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لاجله . كذلك الرسل عليهم السلام أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة فمن الناس من اهتدى بها فانتهى الى غايات السعادة ، ومنهم من غلط في فهمها أو انحرف عن هديها فانكبَّ في مهاوي الشقاء ، فالدين هاد والنقص يعرض لمن دُعوا إلى الاهتداء به ولا يطعن نقصهم في كماله واشتداد حاجتهم اليه (٢٦:٢ يُضل به كثيراً و يهدي به كثيراً وما يُضل به إلا الفاسقين)

ألا إن الدين مستقرّ السكينة ، وملجأ الطمأنينة ، به يرضى كل بما قسم له ، و به يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، و به تخضع النفوس الى أحكام السنن العامة في الكون ، و به ينظر الانسان الى

من فوقه في العلم والفضيلة ، والى من دونه في المال والجاه ، اتباعاً لما وردت به الاوامر الالهية . الدين أشبه بالبواعث الفطرية الإلهامية ، منه بالدواعي الاختيارية ، الدين قوة من أعظم قوى البشر وانما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى ، وكل ما وجه إلى الدين من مثل الاعتراض الذي نحن بصدده فتبعته في أعناق القائمين عليه ، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة اليه ، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة احكامه ، وما عليهم في ابلاغ القلوب بغيتها منه الا أن يهتدوا به ، ويرجعوا به الى أصوله الطاهرة الاولى ، ويضعوا عنه أوزار البدع فترجع اليه قوته ، وتظهر للاعمى حكمته

ربما يقول قائل إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأي القائلين بإهمال العقل بالمرة في قضايا الدين وبان أساسه هو التسليم المحض وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام . فنقول لو كان الامر كما عساه أن يقال لما كان الدين علما يهتدى به وانما الذي سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الامم بدون مرشد إلهي كما لا يستقل الحيوان في إدراك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها بل لا بد معها من السمع لادراك المسموعات مثلا (١) كذلك الدين هو حاسة عامة

(١) قال المؤلف في الدرس: هذه القضية مهملة تصدق بالبعض فلا يناقضها ان بعض الديدان له حاسة واحدة يدرك بها كل ما يحتاج الى إدراكه

لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله والاذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال. كيف ينكر على العقل حقه في ذلك وهو الذي ينظر في أدلتها، ليصل منها الى معرفتها، وانها آتية من قبل الله، وانما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما جاء به وان لم يستطع الوصول الى كنه بعضه والنفوذ الى حقيقته، ولا يقضي عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدي الى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين في موضوع واحد في آن واحد فان ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتي به فان جاء ما يوهم ظاهره ذلك في شيء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد وله الخيار بعد ذلك في التأويل مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه في كلامه وفي التفويض إلى الله في علمه وفي سلفنا من الناجين من أخذ بالاول ومنهم من أخذ بالثاني

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا في هذه الوريقات أن نلمّ بتاريخ الامم عامة وتاريخ العرب خاصة في زمن البعثة المحمدية لنبين كيف كانت حاجة سكان الارض ماسّة الى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم

وتخفض من أبصارهم(١) المعقودة بعنان السماء، الى من دونهم من رعاياهم الضعفاء، والى نار تنقض من سماء الحق على أُدُم الانفس البشرية لتأ كل ما اعشوشبت به من الاباطيل القاتلة للعقول، وصيحة فصحى تزعج الغافلين، وترجع بألباب الذاهلين، وتنبه المرؤسين الى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين، والهداة الضالين، والقادة الغارّين، وبالجملة توثب بهم الى رشد يقيم الانسان على الطريق التي سنها الله له « اناهديناه السبيل » (٢) ليبلغ بسلوكها كماله، ويصل على نهجها الى ما أعد في الدارين له، ولكنا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف:

كانت دولتا العالم (٣) دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب في تنازع وتجالد مستمر: دماء بين العالمين مسفوكة، وقوى منهوكة، وأموال هالكة، وظلم من الاحن حالكة، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والاسراف والفخفخة والتفنن في الملاذ بالغة حدما لا يوصف في

---

(١) ضرب من التمثيل كما هو ظاهر وصرح به المؤلف في الدرس. وكذلك قوله « والى نار » وقس على ذلك (٢) قال المؤلف في الدرس: المراد بالسبيل والطريق هو فطرة الله التى فطر الناس عليها (٣) بيان للكلمة التي استعارها من التاريخ. قال في الدرس وفاتني وقت الكتابة ذكر دولة الصين فانها كانت أيضا ممزقة بالحروب الاهلية ومع التركان وسنذكرها في طبعة ثانية.

قصور السلاطين والامراء والقواد ورؤساء الاديان من كل أمة. وكان شره هذه الطبقة من الامم لا يقف عند حد فزادوا في الضرائب وبالغوا في فرض الاتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم، وأتوا على ما في أيديها من ثمرات أعمالها، وانحصر سلطان القوي في اختطاف ما بيد الضعيف، وفكر العاقل، في الاحتيال لسلب الغافل، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الارواح والاموال

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب، ويظنها الناظر اليها من ذوي الالباب، ففقد بذلك الاستقلال الشخصي وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم، وتوفير لذاتهم، كما هو الشأن في العجماوات مع من يقتنيها. ضلت السادات في عقائدها وأهوائها، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها، ولكن بقي لها من قوة الفكر أراذل بقاياها، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الالهي الذي يخالط الفطر الانسانية قد يفتق الغلف التي احاطت بالقلوب، ويمزق الحجب التي أسدلت على العقول، فتهتدي العامة الى السبيل، ويثور الجم الغفير على العدد القليل، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحبا من الاوهام، ويهيؤا كسفاً من الاباطيل والخرافات، ليقذفوا بها في عقول العامة فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ويختنق بذلك نور الفطرة ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم. وصرح

الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل، وعدو كل مايثمره النظر، الا ما كان تفسيرا لكتاب مقدس . وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب، ومدد لا ينفد

هذه حالة الاقوام كانت في معارفهم، وذلك كان شأنهم في معايشهم، عبيد أذلاء، حيارى في جهالة عمياء، اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية، والشرائع السابقة، آوت الى بعض الاذهان ومعها مقت الحاضر، ونقص العلم بالغابر، ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع، وانعكس من الطبع، فكان يرى الدنس في مظنة الطهارة، والشره حيث تنتظر القناعة، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام، مع قصور النظر عن معرفة السبب وانصرافه لأول وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين . فاستولى الاضطراب على المدارك وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشريعة معاً ، وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين في شعوب متعددة، وكان ذلك ويلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب

وكانت الامة العربية قبائل متخالفة في النزعات، خاضعة للشهوات، فخر كل قبيلة في قتال اختها، وسفك دماء أبطالها، وسبي نسائها وسلب أموالها، تسوقها المطامع الى المعامع، ويزين لها السيآت، فساد الاعتقادات، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها، فلما جاعوا أكلوها، وبلغوا من تضعضع الاخلاق وهنا قتلوا به

بناتهم تخلصا من عارحياتهن ، أوتنصلا من نفقات معيشتهن ، و بلغ الفحش منهم مبلغالم يعد معه للعفاف قيمة ، و بالجملة فكانت رُبُط(١) النظام الاجتماعي قدتراخت عقدها في كل أمة، وانفصمت عراها عند كل طائفة

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الاقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحي اليه رسالته، و يمنحه عنايته، و يمده من القوة بمايتمكن معه من كشف تلك الغمم، التي أظلت رءوس جميع الامم ،؟ نعم كان ذلك وله الامر من قبل ومن بعد

***

في الليلة الثانية عشرة(٢) من ربيع الاول عام الفيل «٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام» ولد محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي بمكة . ولد يتيما توفي والده قبل أن يولد ولم يترك له من المال الا خمس جمال و بعض نعاج(٣) وجارية ويروى أقل من ذلك. وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبد المطلب و بعد سنتين من كفالته توفي جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهما كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله. وكان صلى الله عليه وسلم من بني عمه وصبية قومه كاحدهم على مابه من يتم فقدفيه الابوين

---

(١) جمع رباط وهومايربط به (٢) هذا هو المشهور الذي عليه الناس في تقاويمهم واحتفالاتهم بذكرى المولد النبوي وهو أحد الأقوال والاصح عند المحدثين انه ولد في الليلة التاسعة منه (٣) قيل خمس وقيل تسع

معاً وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقم على تربيته مهذب ، ولم يُعن بتثقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الاوهام ، وأقرباء من حفدة الاصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلاً ، وفضيلة وأدباً ، حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالامين . أدب الهي لم يجر العادة بأن تزين به نفوس الايتام من الفقراء خصوصاً مع فقر القوّام ، فاكتهل صلى الله عليه وسلم كاملاً والقوم ناقصون ، رفيعاً والناس منحطون ، موحدا وهم وثنيون سلما ، وهم شاغبون (١) صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعا على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون

من السنن المعروفة أن يتيما فقيراً أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لاسيما ان كان من ذوي قرابته وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا استاذ ينبهه ، ولا عضد اذا عزم يؤيده ، فلو جرى الامر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، الى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع الى مخالفتهم ، اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده (٢) ولكن الامر لم يجر على سنته ، بل بغضته

(١) استشهد المؤلف له في الدرس بقصة اختلاف القبائل في وضع الحجر الاسود يوم بناء الكعبة حتى كادوا يتقاتلون واصلاحه بينهم

(٢) كأمية بن أبي الصلت وعمرو بن نفيل

اليه الوثنية من مبدإ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة، وما جاء في الكتاب من قوله « ووجدك ضالا فهدى » لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم، حاش لله إن ذلك لهو الافك المبين، وانما هي الحيرة تلمّ بقلوب أهل الاخلاص، فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلبُ السبيل الى ما هُدوا اليه من انقاذ الهالكين، وإرشاد الضالين، وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته

وجد شيأ من المال يسد حاجته « وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفه معيشته » بما عمل لخديجة رضي الله عنها في تجارتها، وبما اختارته بعد ذلك زوجا لها، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له، وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه، لكنه لم ترُقهُ الدنيا ولم تغره زخارفها، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول الى ما ترغبه الانفس من نعيمها، بل كلما تقدمت به السن، زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع الى الفكر والمراقبة، والتحنث بمناجاة الله تعالى والتوسل اليه في طلب المخرج من همه الأعظم في تخليص قومه، ونجاة العالم من الشر الذي تولاه، الى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه اليه الالهام الإلهي، وتجلى عليه النور القدسي، وهبط عليه الوحي من المقام العلي، في تفصيل ليس هذا موضعه

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه ، وكانت نفوس قومه في انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفي قناعة بما وجدوه من شرف النسبة الى المكان ، دل عليها مافعل جده عبدالمطلب عند زحف أبرهة الحبشي على ديارهم : جاء الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، و بيتهم الحرام ، ومنتجع حجيجهم ، ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم ، وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الابل فيها لعبد المطلب مائتا بعير وخرج عبد المطلب في بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته فقال هي أن ترد الي مائتي بعير أصبتها لي - فلامه الملك على المطلب الحقير ، وقت الخطب الخطير ، فأجابه أنا رب الابل أما البيت فله رب يحميه . هذا غاية ما ينتهي اليه الاستسلام — وعبدالمطلب في مكانه من الرياسة على قريش — فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم في حاله من الفقر ومقامه في الوسط من طبقات أهله حتى ينتجع ملكاً أو يطلب سلطانا؟ لامال ، لا جاه ، لا جند ، لا أعوان ، لا سليقة في الشعر ، لا براعة في الكتاب ، لا شهرة في الخطاب ، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة ، أو يرقى به الى مقام ما بين الخاصة ،

ماهذا الذي رفع نفسه فوق النفوس ، ما الذي أعلى رأسه على الرءوس ، ما الذي سما بهمته على الهمم ، حتى انتدب لارشاد الأمم ، وكفالته لهم كشف الغمم ، بل وإحياء الرمم ، ؟ ؟ ما كان

ذلك الا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم الى مقوّم لما زاغ من عقائدهم ، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ، ما كان ذلك الا وجدانه ريح العناية الالهية تنصره فى عمله ، وتمده فى الانتهاء الى أمله ، قبل بلوغ أجله ، ما هو الا الوحي الإلهي يسعى نوره بين يديه يضيء له السبيل ، ويكفيه مؤنة الدليل ، ما هو إلا الوعد السماوي قام لديه مقام القائد والجندي . أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد ، والاعتقاد بالعليّ المجيد ، والكل ما بين وثنية مفرقة ، ودهرية وزندقة

نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم ، وفى المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم — وفي الثانوية بإفراد إله واحد بالتصرف في الاكوان ورد كل شيء في الوجود اليه — أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم الى ماوراء حجاب الطبيعة فيتنوّروا سر الوجود الذي قامت به — صاح بذوي الزعامة ليهبطوا الى مصافّ العامة في الاستكانة الى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والارض والقابض على أرواحهم في هيا كل أجسادهم — تناول المتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد و بين ربهم الاعلى فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحي ان نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المعتقدين لهم ، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لانفسهم من المكانات الربانية ، الى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل

ذي نفس انسانية في الاستعانة برب واحد يستوي جميع الخلق في النسبة اليه لا يتفاوتون الا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة — وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلوا اغلالهم التي أخذت بايديهم عن العمل ، وقطعتهم دون الامل ، — مال على قراء الكتب السماوية ، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الالهية ، فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدد النكير على المحرفين لها ، الصارفين لألفاظها الى غير ماقصد من وحيها ، اتباعا لشهواتهم ، ودعاهم الى فهمها ، والتحقق بسر علمها ، حتى يكونوا على نور من ربهم — ولفت كل انسان الى ما أودع فيه من المواهب الالهية ، ودعا الناس أجمعين ذكورا واناثا عامة وسادات الى عرفان أنفسهم ، وانهم من نوع خصه الله بالعقل ، و ميزه بالفكر ، وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره ، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الاكوان ، وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد الا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة ، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد الا من خصهم الله بوحيه ، وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع ، والحاجة الى أولئك المصطفين انما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه وليست في الاعتقاد بوجوده — وقرر أن لا سلطان

لاحد من البشر على آخر منه الا مارسمته الشريعة وفرضه العدل ، ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ماسخرت له بمقتضى الفطرة — دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح وانه بذلك من عالمين متخالفين ، وان كان ممتزجين ، وانه مطالب بخدمتهما جميعا وايفاء كل منهما ماقررت له الحكمة الالهية من الحق — دعا الناس كافة الى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الاخرى وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله في العبادة ، والاخلاص للعباد ، في العدل والنصيحة والارشاد

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولاحول له ولا قوة . كل هذا كان منه والناس احباء ماألفوا وان كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ماجهلوا وان كان رغد العيش وعزة السيادة ، ومنتهى السعادة ، كل هذا والقوم حواليه أعداء انفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عُقدت اهداب بصائر العامة منهم باهواء الخاصة ، وحُجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله لا يرون فيه مايرفعه الى نصيحتهم ، والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل ، ويأخذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبر ، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه ، عادل في أمره ونهيه ، أوأب

حكيم في تربية أبنائه، شديد الحرص على مصالحهم، رءوف بهم في شدته، رحيم في سلطته،

ما هذه القوة في ذلك الضعف ؟ ما هذا السلطان في مظنة العجز؟ ماهذا العلم في تلك الامية؟ ماهذا الرشاد في غمرات الجاهلية؟ إن هو الا خطاب الجبروت الأعلى ، قارعة القدرة العظمى ، نداء العناية العليا ، ذلك خطاب الله القادر على كل شيء الذي وسع كل شيء رحمة وعلما، ذلك أمر الله الصادع يقرع الآذان ويشق الحجب ويمزق الغلف وينفذ الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به واختصه بذلك وهو أضعف قومه ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيدا عن الظنة ، بريئا من التهمة ، لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

أيّ برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ : أمي قام يدعو الكاتبين الى فهم ما يكتبون وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليحصوا ما كانوا يعلمون، في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشئ بين الواهمين هبّ لتقويم عوج الحكماء، غريب في أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر في سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها،

ما هذا الخطاب المفحم؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ أأقول ما هذا بشرا إن هذا الا ملك كريم ؟ لالا أقول ذلك ولكن أقول كما أمره

الله أن يصف نفسه: إن هو الا بشر مثلكم يوحي اليه . نبي صدق الانبياء ولكن لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الابصار، أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له، واختص العقل بالخطاب، وحاكم اليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تتطرق اليه الريبة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في نشأته وأميته على الحال التي ذكرنا وتواترت أخبار الامم كافة على أنه جاء بكتاب قال انه انزل عليه وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب في المصاحف المحفوظ في صدور من عُنِيَ بحفظه من المسلمين الى اليوم. كتاب حوى من أخبار الامم الماضية ما فيه معتبر للاجيال الحاضرة والمستقبلة، نقب على الصحيح منها، وغادر الاباطيل التي ألحقتها الاوهام بها، ونبه على وجوه العبرة فيها، حكى عن الانبياء ماشاء الله أن يقص علينا من سيرهم، وما كان بينهم وبين أممهم، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدون برسالاتهم، آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم، وما خلطوا في احكامهم، وما حرفوا بالتأويل في كتبهم، وشرع

للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم، وظهرت الفائدة في العمل بها والمحافظة عليها، وقام بها العدل، وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره، ثم عظمت المضرة في إهمالها والانحراف عنها، او البعد بها عن الروح الذي أودعته، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر في شرائع الامم . ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب، وتهش لاستقبالها العقول، وتنصرف وراءها الهمم، انصرافها في السبيل الأمم،

نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الاخبار على أنه أرقى الاعصار عند العرب وأغزرها مادة في الفصاحة وانه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب . وانفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء، هو الغلب في القول والسبق الى إصابة مكان الوجدان من القلوب، ومقر الإذعان من العقول، وتفانيهم في المفاخرة بذلك مما لا يحتاج الى الاطالة فى بيانه

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها و بعيدها لابطال دعواه، وتكذيبه في الإخبار عن الله، واتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته، والامراء الذين يدعوهم السلطان الى مناوأته، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته، وقد اشتد جميع أولئك في مقاومته، وانهالوا بقواهم عليه، استكباراً عن الخضوع له، وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم، وحمية

لعقائدهم وعقائد أسلافهم، وهو مع ذلك يخطئ آراءهم، ويسفه أحلامهم، ويحتقر أصنامهم، ويدعوهم الى مالم تعهده أيامهم، ولم تخفق لمثله أعلامهم، ولا حجة له بين يدي ذلك كله إلا تحديهم بالاتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله، وكان في استطاعتهم أن يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاؤا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة ، ويفحموا صاحب الدعوة

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدي، ولجاج القوم في التعدي، أصيبوا بالعجز، ورجعوا بالخيبة، وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه العلي على جميع الاحكام ، أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم معجزة وأدل برهان على انه ليس من صنع البشر ، وانما هو النور المنبعث عن شمس العلم الالهي، والحكم الصادر عن المقام الرباني، على لسان الرسول الامي ، صلوات الله عليه

هـذا وقد جاء في الكتاب من اخبار الغيب ماصدقته حوادث الكون كالخبر في قوله (٣٠: ٢ غُلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيَغلِبون، في بضع سنين) وكالوعد الصريح في قوله (٢٤: ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية . وقد تحقق جميع ذلك . وفي القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته . ومن الكلام على الغيب

فيه ماجاء في تحدي العرب به واكتفائه في الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد اطرافها ، وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى مكة من جميع ارجائها، ومع انه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة في نواحيها والتعرف برجالها ، وقصور العلم البشري عادة عن الاحاطة بما اودع في قوى امة عظيمة كالامة العربية . فهذا القضاء الحاتم منه بانهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ماتحداهم به ليس قضاء بشريا . ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه وشرط كالذي شرطه على نفسه، لغلبة الظن عند من له شيء من العقل ان الارض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته، وانما ذلك هو الله المتكلم، والعليم الخبير هو الناطق على لسانه، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له، وبلوغ ماحثهم عليه

يقول واهم ان العجز حجة على من عجز فان العجز هي حجة الإفحام والزام الخصم وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ولكن ليس ذلك بملزم لغيره فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه فلا يفحمه الدليل، بل يجد الى ابطاله أقرب سبيل.

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان اذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل الا أنه يوجد عن كل منهما عجز، وشتان بين العجزين، وبعدما بين وجهي الاستدلال فيهما، فان إعجاز القرآن برهن

على أمر واقعي وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة . وقلنا القوى البشرية لانه جاء بلسان عربي وقد عرف الكتاب عند جميع العرب في عهد النبوة، وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا، وحال القوم في العناد كما بينا، ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشيء من مبلغ عقولهم، فلا يعقل أن فارسيا أو هنديا أو رومانيا يبلغ من قوة البلاغة في العربية أن يأتي بما عجز عنه العرب أنفسهم ، وتقاصر القوي جميعها عن ذلك مع التماثل بين النبي وبينهم في النشأة والتربية ، وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة، دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر، فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه، ثم ما ورد في القرآن من تسجيل العجز عليهم والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة مما يدل على الثقة من أمره مع ما سبق تعداده من الامور التي لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن، وانفساح الاجل، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة، لا رجل يعظ وينصح على العادة

فثبت بهذه المعجزة العظمى، وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذي لا يعرض عليه التغيير، ولا يتناوله التبديل، أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله الى خلقه فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد في الكتاب المنزل عليه، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة، وقد جاء في الكتاب أنه خاتم الانبياء فوجب علينا الايمان بذلك كذلك

بقي علينا أن نشير الى وظيفة الدين الاسلامي ومادعا اليه على وجه الاجمال وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة والسر في كون النبي صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين

الدين الاسلامي أو الاسلام

هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم، وجرى العمل عليه حينا من الزمن بينهم بلا خلاف، ولا اعتساف في التأويل، ولا ميل مع الشيع، وإني مجمله في هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد في التفويض لذوي البصائر أن يفصلوه، وماسندي فيما أقول الا الكتاب والسنة القويمة وهدي الراشدين

جاء الدين الاسلامي بتوحيد الله تعالى في ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين فأقام الادلة على أن للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه وأن لا نسبة بينه و بينهم الا أنه موجدهم وأنهم له واليه راجعون «١١٢: ١ قل هو الله أحد ٢ الله الصمد ٣ لم يلد ولم يولد ٤ ولم يكن له كفواً أحد» وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا في شيء منها، وان ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز في جسد أو روح أحد من

العالمين. وانما يختص سبحانه من شاء من عباده (١) بما شاء من علم وسلطان، على ما يريد أن يسلطه عليه من الاعمال، على سنة له في ذلك سنها في علمه الازلي الذي لا يعتريه التبديل، ولا يدنو منه التغيير، وحظر على كل ذي عقل أن يعترف لاحد بشيء من ذلك إلا ببرهان ينتهي في مقدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التي لا تنقص عنه في الوضوح بل قد تعلوه كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معا أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا. وقضي على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون (٢) وأن ما يجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص و بتيسير خاص في موضع خاص لحكمة خاصة ولا يعرف شأن الله في شيء من هذا الا ببرهان كما تقدم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب «١٦: ٧٨ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون» (٣) والشكر عند العرب معروف أنه تصريف النعمة فيما كان الانعام بها

---

(١) يعني الانبياء (٢) اشارة الى قوله تعالى «٢١: ٢٦ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون» (٣) قال المؤلف في الدرس: «لعل» في القرآن تعبر دائماً عن الاستعداد أي جعل لكم هذه الآلات ليعدكم بها للشكر أو قال ليعدكم لشكرها بتحصيل جميع العلوم بها. أي وهذا ما خلقت لأجله بقرينة «لا تعلمون شيئاً» قال والأفئدة العقول أين كان محلها أي سواء كان الدماغ أو القلب

لاجله — دل بمثل هذا على ان الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه في وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها. وأما ما تتحير فيه مداركنا، وتقصر دونه قوانا، وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها، أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه، على أنه فوق ما نعرف من القوى المسخرة لها، وكان لا بد من الخضوع له، والرجوع اليه والاستعانة به، فذلك(١) إنما يرد الى الله وحده فلا يجوز أن تخشع إلا له، ولا أن تطمئن إلا إليه، وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه في الحياة الآخرة،: لا يسوغ لها أن تلجأ الى أحد غير الله في قبول أعمالها من الطيبات ، ولا في غفران أفاعيلها من السيئات، فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها في الصورة والشكل، أو العبارة واللفظ، لم يختلف عنها في المعنى والحقيقة، تبع هذا طهارة العقول من الاوهام الفاسدة، التي لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التي كانت تلازم تلك الاوهام،

(١) قوله فذلك خبر قوله « واما ما تتحير » وحاصل المعنى أن الشعور بوجود قوة غيبية فى الكون هو مما أودع فى غرائز البشر ولكن هذه القوة هي لله وحده فلا يجوز أن يتوجه الى غيره فيما هو غير معتاد من الاسباب المشتركة بين البشر ولو كان نبياً أو ولياً

وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف في المعبودين وعليهم «١» وارتفع شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لاحد إلا لخالق السموات والارض وقاهر الناس أجمعين، وأبيح «٢» لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم (٦: ٧٩ اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين) وكما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقول (٦: ١٦٢ ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي «٣» لله رب العالمين ١٦٣ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)

تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة وأطلقت ارادته من القيود التي كانت تعقدها بارادة غيره سواء كانت ارادة بشرية «٤» ظن أنها شعبة من الارادة الالهية أو أنها هي كارادة الرؤساء والمسيطرين، أو إرادة

---

(١) ذكر في الدرس هنا مفاسد المنتسبين لطرق الصوفية واختلافهم فليتذكر من يعلم (٢) عبر بأبيح للاشارة الى ان ذلك كان محظورا عند الامم السابقة فلم يكن يباح لاحد ان يتوجه الى الله بدون واسطة الرئيس الديني فلم يكونوا حنفاء (٣) اي ان صلاتي وجميع عبادتي وحياتي وشؤونها ومماتي وما بعده كل ذلك لله وحده لا أتوجه فيه الى مرضاة غيره ولا استعين بأحد على شئ منه استعانة معنوية بل به وحده مهتديا بما شرعه من السنن والاحكام (٤) قال المؤلف كإرادة القديسين والكهنة الذين يأتي ذكرهم مرتبا

موهومة اخترعها الخيال كما يظن في القبور والاحجار والاشجار والكواكب ونحوها، وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء، والمتكهنة والعرفاء، وزعماء اليسطرة على الاسرار، ومنتحلي حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله، الزاعمين أنهم واسطة النجاة وبأيديهم الاشقاء والاسعاد، وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين. صار الانسان بالتوحيد عبداً لله خاصة حرا من العبودية لكل ماسواه، فكان له من الحق ما للحر على الحر، لا عليَّ في الحق ولا وضيع، ولا سافل ولا رفيع، ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم، ولا تفاضل الا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم، ولا يقربهم من الله الا طهارة العقل من دنس الوهم، وخلوص العمل من العوج والرياء، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين، وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة، وكفت عنها أيدي العالة، وأهل البطالة، ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته، لا بعمله وخدمته

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت (٩٩: ٧ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ٨ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره * ٥٣: ٣٩ وأن ليس للانسان الا ما سعى) وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ماشاء أكلا وشربا ولباسا وزينة، ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا بنفسه أو بمن يدخل في ولايته، أو ما تعدى ضرره الى غيره، وحدد له في ذلك الحدود العامة، بما ينطبق على مصالح البشر كافة، فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتسع المجال لتسابق

الهمم في السعي حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها اللهم الا حقا محترما تصطدم به

أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان «*» في عقائد الامم

صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها، كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هياكل الوهم «نم فان الليل حالك، والطريق وعرة، والغاية بعيدة، والراحلة كليلة، والازواد قليلة» علا صوت الاسلام على وساوس الطغام، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والاعلام، أعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون، والى طرق البحث هادون،

صرح في وصف أهل الحق بانهم « ٣٩ : ١٨ الذين يستمعون

«*» ذكر المؤلف منها في الدرس ثلاثا: ١ـ احترام المرء لآبائه ومربيه ـ ٢ ـ اعتقاده عظمة سلفه من رجال الدين ـ ٣ ـ الحذر من إنكار الناس المحتفين به واعتراضهم عليه اذا حاول ان يخرج عما هم عليه، اي فمن لم يحترم نفسه واستقلال فكره ويمرن نفسه على الأخذ بما يعتقد انه الحق وان خالف الآباء والمعلمين والاحياء والاموات غير المعصومين من الخطإ فلا يمكنه ان ينطلق من قيود التقليد. وسيأتي في كلامه ما يهدم تلك القواعد والاركان

القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرؤسيهم يَخبُر ونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون، لا بما يظنون ويتوهمون،

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وما توارثه عنهم الابناء، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبأ على أن السبق في الزمان، ليس آية من آيات العرفان، ولا مُسميا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان، وانما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان، بل للاحق من علم الاحوال الماضية والاستعداد للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذي وصل اليهم بما اقترفه سلفهم، «٣: ١٣٧ فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب، ورحمته التي وسعت كل شيء ان تضيق عن دائب ،

عاب أرباب الاديان في اقتفائهم أثر آبائهم ، ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم، وقولهم « ٢١:٣١ بل نتبع ما وجدنا عليه

آباءنا» «٢٢:٤٢ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنَّا على آثارهم مهتدون»

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده، وخلصه من كل تقليد كان استعبده، ورده الى مملكته، يقضي فيها بحكمه وحكمته، مع الخضوع في ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته، ولا حد للعمل في منطقة حدودها، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها

بهذا وما سبقه تمَّ للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأي والفكر وبهما كملت له انسانيته واستعد لان يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية في أوروبا انما قامت على هذين الاصلين فلم تنهض النفوس للعمل، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر، إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم وأن لهم حقا في تصريف اختيارهم، وفي طلب الحقائق بعقولهم، ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان الا في الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح، وقرر ذلك الحكيم انه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام، ومعارف المحققين من أهله في تلك الازمان

— رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الاديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لانفسهم وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة، ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم ان يقرءوا قطعا

من تلك الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى ماترمي اليه، ثم غالوا في ذلك فحرموا أنفسهم أيضا مزية الفهم الا قليلا، ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء في الشرائع والنبوات، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبدا بالاصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار مافعلوا فقال «٢: ٧٨ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانيّ وان هم الا يظنون» «٦٢: ٥ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين» أما الاماني ففسرت بالقرآت والتلاوات أي لا يعلمون منه الا أن يتلوه واذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه دينا، واذا عنَّ لأحدهم أن يبين شيئاً من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته الى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة واعتسف في التاويل وقال هذا من عند الله «٢: ٧٩ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا» أما الذين قال انهم لم يحملوا التوراة وهي بين أيديهم بعد ما حُمّلوها فهم الذين لم يعرفوا منها الا الالفاظ، ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التي نصبت بانزالها، فحق عليهم ذلك المثل الذي أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به: مثل الحمار الذي يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها الا

العناء والتعب وقصم الظهر، وانبهار النفس، وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال فما كان سببا في إسعادهم وهو التنزيل والشريعة، أصبح سببا في شقائهم بالجهل والغباوة، وبهذا التفريع ونحوه وبالدعوة العامة الى الفهم وتمحيص الالباب للتفقه واليقين مما هو منتشر في القرآن العزيز.

فرض الاسلام على كل ذي دين أن يأخذ بحظه من علم ماأودع الله في كتبه وما قررمن شرعه وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بإعداد مالا بد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور الاعظم من المتدينين لا تختص به طبقة من الطبقات، ولا يحتكر مزيته وقت من الاوقات،

جاء الاسلام والناس شيع في الدين، وان كانوا إلا قليلا في جانب عن اليقين، يتنابذون ويتلاعنون، ويزعمون في ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون، فرقة وتخالف وشغب، يظنونها في سبيل الله أقوى سبب، أنكر الاسلام ذلك كله وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بان دين الله في جميع الازمان وعلى ألسن جميع الانبياء واحد. قال الله (٣:١٩ ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم * ٣:٦٧ ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * ٤٢:١٣ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم اليه * ٣:٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا

بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وكثير من ذلك يطول ايراده في هذه الوريقات. والآيات الكريمة التي تعيب على أهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم في علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته

نص الكتاب على أن دين الله في جميع الازمان هو إفراده بالربوبية، والاستسلام له وحده بالعبودية، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه، مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله، ودعا العقول الى فهمه منه، والعزائم الى العمل به، وان هذا المعنى من الدين هو الاصل الذي يرجع اليه عند هبوب ريح التخالف، وهو الميزان الذي توزن به الاقوال عند التناصف، وان اللجاج والمراء في الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته، ومتى روعيت حكمته، ولوحظ جانب العناية الالهية في الانعام على البشر به، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها، وسار الكافة في مراشدهم إخواناً بالحق مستمسكين، وعلى نصرته متعاونين

أما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الاديان الصحيحة سابقها مع لاحقها، واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها، فمصدره رحمة الله ورأفته في إيتاء كل أمة وكل زمان، ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان، وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدريج في تربية الاشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئاً إلى راشد في عقله، كامل في

نشأته ، يمزق الحجب بفكره ، و يواصل أسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه في تربية الامم فلم يكن من شأن الانسان في جملته ونوعه أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله ، الى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بان يكون شأن جملته في النمو قائما على ماقررته الفطرة الالهية في شأن أفراده ، وهذا من البديهيات التي لا يصح الاختلاف فيها وان اختلف اهل النظر في بيان ماتفرع منه فى علوم وضعت للبحث في الاجتماع البشري خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة في طور أشبه بطور الطفولية للناشئ الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه الا ماوقع تحت حسه ، و يصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه ، وأن يتناول بذهنه من المعاني مالايقرب من لمسه ، ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن مايعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه ، فهو من الحرص على مايقيم بناء شخصه ، في هم شاغل عما يلقى اليه فيما يصله بغيره ، اللهم الا يدا تصل الى فمه بطعام ، أو تسنده في قعود أو قيام ، فلم يكن من حكمة تلك الاديان أن تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان ، أو يرقى اليه بسلم البرهان ، بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالاقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في سذاجة السن لايأتيه الا من قبل

مايحسه بسمعه أو ببصره، فأخذتهم بالاوامر الصادعة، والزواجر الرادعة، وطالبتهم بالطاعة، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة، كلفتهم معقول المعنى جلي الغاية وان لم يفهموا معناه، ولم تصل مداركهم الى مرماه، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم، وتنفعل به مشاعرهم، وفرضت عليهم من العبادات مايليق بحالهم هذه

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الاقوام وسقطت، وارتفعت وانحطت، وجربت وكسبت، وتخالفت واتفقت، وذاقت من الايام آلاما، وتقلبت في السعادة والشقاء أياما وأياما، ووجدت الانفس بنفث الحوادث، ولقن الكوارث، شعوراً ادق من الحس وأدخل في الوجدان، لا يرتفع في الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان، فجاء دين يخاطب العواطف، ويناجي المراحم، ويستعطف الاهواء، ويحادث خطرات القلوب، فشرع الناس من شرائع الزهادة مايصرفهم عن الدنيا بجملتها، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الاعلى، ويقتضي من صاحب الحق، أن لا يطالب به ولو بحق، ويغلق أبواب السماء، في وجوه الاغنياء، وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف، وسن للناس سننا في عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه، وما دعاهم اليه، فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها، وداوى من امراضها، ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والاخذ باقواله، ووقر في الظنون أن اتباع وصاياه

ضرب من المحال، فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك في السلطان، ومزاحمة أهل الترف في جمع الاموال، وانحرف الجمهور الاعظم منهم عن جادَّته بالتأويل، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الاباطيل، هذا كان شأنهم في السجايا والاعمال: نسوا طهارته، وباعوا نزاهته، أما في العقائد فتفرقوا شيعا، وأحدثوا بدعا، ولم يستمسكوا من أصوله الا بما ظنوه من أشد أركانها، وتوهموه من أقوى دعائمها، وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفي غيره من دقائق الاكوان، والحظر على الافكار أن تنفذ الى شيء من سرائر الخلقة، فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل، وأن الدين من أشد أعداء العلم، ولم يكف الذاهب الى ذلك أن يأخذ به نفسه، بل جد في حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة، وافضي الغلو في ذلك بالانفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانساني، وهي نزعة الحرب بين أهل الدين، للالزام ببعض قضايا الدين، فتقوض الاصل، وتخرمت العلائق بين الاهل، وحلت القطيعة محل التراحم، والتخاصم مكان التعاون، والحرب محل السلام، وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام

كانت سن الاجتماع البشري قد بلغت(١) بالانسان أشده، وأعدته

---

(١) ذكر الاستاذ الامام ضمير السن هنا وفي تفسير جزء عم سهوا ثم انه تنبه لكون السن موءنثة فأمر بتصحيحها في جزء عم بعد طبعه وكأنه نسي تصحيحها هنا فصححناها اتباعاً لتصحيحه هنالك وان كان التأنيث مجازيا

الحوادث الماضية إلى رشده، فجاء الاسلام يخاطب العقل، ويستصرخ الفهم واللب، ويشركه مع العواطف والاحساس في ارشاد الانسان إلى سعادته الدنيوية والاخروية، وبين للناس ما اختلفوا فيه، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا فيه، وبرهن على أن دين الله في جميع الاجيال واحد، ومشيئته في إصلاح شؤونهم وتطهير قلوبهم واحدة، وأن رسم العبادة على الاشباح انما هو لتجديد الذكرى في الارواح، وأن الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب، وطالب المكلف برعاية جسده، كما طالبه باصلاح سره، ففرض نظافة الظاهر، كما أوجب طهارة الباطن، وعد كلا الامرين طهرا مطلوبا، وجعل روح العبادة الاخلاص، وان ما فرض من الاعمال، انما هو لما أوجب من التحلي بمكارم الاخلاق (٢٩: ٤٥ ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر * ٧٠: ١٩ ان الانسان خلق هلوعاً ٢٠ اذا مسه الشر جزوعاً ٢١ واذا مسه الخير منوعا ٢٢ الا المصلين) ورفع الغني الشاكر، الى مرتبة الفقير الصابر، بل ربما فضله عليه، وعامل الانسان في مواعظه معاملة الناصح الهادي للرجل الرشيد، فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة، وصرح بما لا يقبل التأويل ان في ذلك رضا الله وشكر نعمته، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا وصول الى خير العقبى، الا بالسعي في صلاح الدنيا

التفت الى أهل العناد فقال لهم (٢: ١١١ و ٢٧: ٦٤ قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين، ونص على أن التفرق بغي وخروج عن سبيل الحق المبين، ولم يقف في

ذلك عند حد الموعظة بالكلام، والنصيحة بالبيان، بل شرع شريعة الوفاق وقررها في العمل فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب وسوغ مؤاكلتهم، وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتي هي أحسن، ومن المعلوم أن المحاسنة هي رسول المحبة، وعقد الالفة، والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين، والارتباط بينهما بروابط الائتلاف، وأقل مافيها محبة الرجل لزوجته وهي على غير دينه. قال تعالى (٣٠ : ٢١ خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل في ذمتهم من غيرهم، كما يدافعون عن أنفسهم، ونص على أن لهم مالنا وعليهم ماعلينا، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيدا يقدمونه من مالهم ونهى بعد اداء الجزية (* عن كل اكراه في الدين، وطيب قلوب المؤمنين في قوله (٥ : ١٠٥ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم

---

*) فيه ان النهي عن الاكراه في الدين نزل قبل سورة براءة التي شرع فيها أخذ الجزية فالاكراه في الدين ممنوع في الاسلام مطلقا ولكن اذا اراد المسلمون محاربة قوم من الكافرين لتعديهم عليهم او تهديدهم لدعوتهم مثلا وجب عليهم ان يدعوهم اولا الى الاسلام بالاختيار فان أسلموا حرم قتالهم وان لم يسلموا دعوهم الى اداء الجزية ان كانوا من اهلها كأنهم يقولون لهم انكم ألجأتمونا الى حربكم فنحن نقدم عليه إلا ان تسلموا وتؤدوا الجزية . وهذا لا يمنع من الصلح اذا اتفق عليه الفريقان

لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) فعليهم الدعوة الى الخير بالتي هي أحسن وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أي ضرب من ضروب القوة في الحمل على الاسلام فان نوره جدير أن يخترق القلوب وليست الآية في الامر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بعد القيام به . كل ذلك ليرشد الناس الى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه، ولكن ليهديهم الى الخير في جميع نواحيه

رفع الاسلام كل امتياز بين الاجناس البشرية، وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله في الخلقة، وشرف اندراجها في النوع الانساني بالجنس والفصل والخاصة، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها على خلاف ما زعمه المتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم، فأماتوا بذلك الارواح في معظم الامم، وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحا

هذه عبادات الاسلام على ما في الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الاشباه، وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة — فالصلاة ركوع وسجود، وحركة وسكون، ودعاء وتضرع، وتسبيح وتعظيم، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الإلهي الذي يغمر القوة البشرية، ويستغرق الحول فتخشع له القلوب، وتستخذي له النفوس، وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد

الركعات، أو رمي الجمرات، على انه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير. وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التي وضعها الله للعقل في الفهم والتفكير. أما الصوم فحرمان يعظم به أمر الله في النفس، وتعرف به مقادير النعم عند فقدها، ومكانة الاحسان الالهي في التفضل بها «٢ : ١٨٣ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون(١)» أما اعمال الحج فتذكير للانسان بأوليات حاجاته وتعهد له بتمثيل المساواة بين أفراده ولو في العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغني والفقير، والصعلوك والامير، ويظهر الجميع في معرض واحد مكشوفي الرءوس، متجردين عن المخيط، وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين، كل ذلك مع استبقائهم في الطواف والسعي والموقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو أبو الدين وهو الذي سماهم المسلمين «٢» واستقرار يقينهم على أن لاشيء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع وهم مع هذا الاذعان الكريم في كل عمل مقرّون بتنزيه الله عن التشبيه

(١) راجع تفسيرها وقول المؤلف فيها في ص ١٥٧ ج ٢ من التفسير

(٢) ذكر المؤلف في الدرس . ان هذا قول لبعضهم وان المختار عنده في تفسير « ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » أن الضمير راجع الى الله . وكتب على هامش نسخته في هذا المكان « المسمي هو الله »

والتجسيم «١» . اين هذا كله مما تجد في عبادات أقوام آخرين يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد

كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير « العالم » والكون الصغير « الانسان » فقرران آيات الله الكبرى في صنع العالم انما يجري أمرها على السنن الالهية «٢» التي قدرها الله في علمه الازلي لا يغيرها شيء من الطوارئ الجزئية غير انه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها ، بل ينبغي ان يحيا ذكره عند رؤيتها ، فقد جاء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله حتى ينجلي» وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد لا يقضي فيه الا العناية الازلية على السنن التي أقامته عليها . ثم أماط اللثام عن حال الانسان في النعم التي يتمتع بها الاشخاص أو الامم ، والمصائب التي يرزؤن بها ، ففصل بين الامرين فصلا لا مجال

---

(١) كذا صحح العبارة في هامش نسخته . وفي جدول التصحيح هكذا : « وهذا الاذعان الكريم في كل عمل من أعمال العبادات الاسلامية مقرون بما يدل على التنزيه ، وتقديس الله عما يوهم التشبيه » اي كالتكبير الذي هو عبارة الاصل (٢) راجع تفسير قوله تعالى (٣ : ١٣٧ قد خلت من قبلكم سنن) وما قاله المؤلف في السنن في الجزء السادس من المجلد الحادي عشر من المنار

معه للخلط بينهما . فاما النعم التي يمتع الله بها بعض الاشخاص في هذه الحياة والرزايا التي يرزأ بها في نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد ربما لا يكون كاسبها أو جالبها ماعليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج أوطاعة وعصيان، وكثيرا ماأمهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظارا لهم حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الاخرى ، وكثيرا ماامتحن الله الصالحين من عباده، واثنى عليهم في الاستسلام لحكمه، وهم الذين اذا اصابتهم مصيبة عبروا عن اخلاصهم في التسليم بقولهم «٢: ١٥٦ إنا لله وإنا اليه راجعون » فلاغضب زيد ولا رضا عمرو ولا اخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ولا في تلك النعم الخاصة اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة كارتباط الفقر بالاسراف ، والذل بالجبن، وضياع السلطان بالظلم، وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الاغلب، والمكانة عند الناس بالسعي في مصالحهم على الاكثر، ومايشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر

، أماشأن الامم فليس على ذلك فان الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الاهواء وتحديد مطامح الشهوات، والدخول الى كل أمر من بابه، وطلب كل رغيبة من اسبابها، وحفظ الامانة، واستشعار الاخوة ، والتعاون على البر،

والتناصح في الخير والشر، وغير من أصول الفضائل ـ ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة «٣: ١٤٥ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها » (١) ولن يسلب الله عنها نعمته مادام هذا الروح فيها، يزيد الله النعم بقوته، وينقصها بضعفه، حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على أثره، وتبعته الراحة الى مقره، واستبدل الله عزة القوم بالذل، وكثرهم بالقل، ونعيمهم بالشقاء، وراحتهم بالعناء، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين، فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون «١٧: ١٦ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ثم لا ينفعهم الانين ولا يجديهم البكاء، ولا يفيدهم ما بقي من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء، ولا كاشف لما نزل بهم الا أن يلجؤا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر «١٣ : ١١ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» «٣٣: ٦٢ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » وما أجل ماقاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه « اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ولم يرفع الا بتوبة » على هذه السنن جرى سلف الامة فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الاعمال الجليلة، كان غيره يظن انه

---

(١) راجع تفسير المؤلف لها في المنار (ج ٧ م ١١)

تزلزل الارض بدعائه ، و يشق الفلك بيكائه، وهو ولع باهوائه، ماض في غلوائه، وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئاً

حث القرآن على التعليم وارشاد العامة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال «٩: ١٢٢ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » ثم فرض ذلك في قوله « ٣: ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ١٠٥ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ١٠٦ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم: أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ١٠٧ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ١٠٨ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ١٠٩ ولله ما في السموات وما في الارض والى الله ترجع الامور) ثم بعد هذا الوعيد الذي يزعج المفرطين، ويحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين، أبرز حال الامارين بالمعروف النهائين عن المنكر في أجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال « ١١٠ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(* فقدم ذكر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على الايمان في هذه الآية مع ان الايمان هو

---

*) راجع تفسير الآيات وما قاله المؤلف فيها في ص ٥٧١ ــ ٥٨٢ و ٦٤١ ــ ٦٥٠ و ٧٢١ ــ ٧٣١ من مجلد المنار العاشر

الاصل الذي تقوم عليه أعمال البر، والدوحة التي تتفرع عنها أفنان الخير، تشريفا لتلك الفريضة واعلاء لمنزلتها بين الفرائض، بل تنبيها على أنها حفاظ الايمان وملاك أمره، ثم شد بالانكار على قوم أغفلوها، وأهل دين أهملوها، فقال «٥:٧٨ لُعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ٧٩ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» فقذف عليهم اللعنة وهي أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه

فرض الاسلام للفقراء في أموال الاغنياء حقا معلوما يفيض به الغنيّ على الفقير سداً لحاجة المعدم، وتفريجاً لكربة الغارم، وتحريراً لرقاب المستعبدين، وتيسيراً لأبناء السبيل، ولم يحث على شيء حثه على الانفاق من الاموال في سبيل الخير، وكثيراً ما جعله عنوان الايمان ودليل الاهتداء الى الصراط المستقيم، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة، ومحص صدورهم من الاحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء، وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين، فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس أجمعين، وأي دواء لامراض الاجتماع أنجع من هذا؟ «٥٧:٢١ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»

أغلق الاسلام بابي الشر وسد ينبوعي فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريما باتًّا لا هوادة فيه

لم يدع الاسلام بعدما قررنا أصلا من أصول الفضائل إلا أتى عليه، ولا أما من أمهات الصالحات الا أحياها، ولا قاعدة من قواعد النظام الاقررها، فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر واستقلال العقل في النظر، وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع، وما فيه إنهاض العزائم الى العمل، وسوقها في سبل السعي، ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لاينفد وذخيرة لاتفنى، هل بعد الرشد وصاية، و بعد اكتمال العقل ولاية؟ كلا قد تبين الرشد من الغي، ولم يبق الا اتباع الهدى والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين. لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة و برهنت عليه خيبة مدعيها من بعده واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لا سبيل بعدُ لقبول دعوة يزعم القائم بها أنه يحدث عن الله بشرع، أو يصدع عن وحيه بأمر، هكذا يصدق نبأ الغيب «٣٣: ٤٠ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما»

انتشار الاسلام

(بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ)

كانت حاجة الامم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين

عامة كذلك، لكن يدهش عقل الناظر في أحوال البشر عندما يرى ان هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من أدناها الى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة، ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين في أقل من قرن واحد، وهو أمر لم يعهد في تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير في بيان السبب، واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقي من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل: أوذي الداعي صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء، وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله، وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق، وطردوا من الدار، وسفكت منهم دماء غزيرة، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر، يثبت الله بمشهدها المستيقنين، ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهي ذوب ما فسد من طباعهم فتجري من مناحرهم جري الدم الفاسد من المفصود على أيدي الاطباء الحاذقين « ٨:‏٣٧ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون »

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته، ويخنقوا دعوته، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء، والفقير للاغنياء، ولا ناصر له الا أنه الحق بين الاباطيل، والرشد في ظلمات الاضاليل، حتى ظفر بالعزة، وتعزز بالمنعة،

وقد وطئ أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحا ، ولا أنا لهم القهر فلاحا

ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يعهد لها نظير في ماضيهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربيــة من ملوك الفرس والروم فهزؤا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر ، فغزاهم بنفسه ، وبعث اليهم البعوث في حياته ، وجرى على سنته الأئمة من صحابته ، طلبا للأمن وابلاغا للدعوة ، فاندفعوا في ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم وانها لو ابه على تلك الامم في قوتها ومنعتها ، وكثرة عددها ، واستكمال أهبها وعددها ، فظفروا منها بما هو معلوم ، وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين ، وأباحوا لهم البقاء على اديانهم واقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزأ قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة

كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينها يلجون على الناس بيوتهم ، ويغشون مجالسهم ، ليحملوهم على دين الظافر ، وبرهانهم الغلبة ، وحجتهم القوة ، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد في تاريخ فتوح الاسلام أن كان له دعاة معروفون

لهم وظيفة ممتازة يأخذون على انفسهم العمل في نشره ، و يقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة، وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلاً و إحساناً، عندما كان يعدها الاروبيون ضعة وضعفا

رفع الاسلام ما ثقل من الاتاوات ورد الاموال المسلوبة الى أربابهـا، وانتزع الحقوق من مغتصبيها، ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم

بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل اسلام من داخل فيه الا بين يدي قاض شرعي باقرار من المسلم الجديد أنه اسلم بلا اكراه ولا رغبة في دنيا . وصل الامر في عهد بعض الخلفاء الامويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا انه ينقص من مبالغ الجزية وكان في حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة ولذلك امر عمر بن عبد العزيز بتعزير مثل أولئك العمال

عرف خلفاء المسلمين وملوكهم في كل زمن مالبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في اسبانيا

اشتهرت حرية الاديان في بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوربا فرارا منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها

هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم: لم يفعلوا

شيئا سوى أنهم حملوا الى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم في القبول وعدمه، ولم يقوموا بينهم بدعوة، ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيأ من القوة، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه، فما الذي أقبل بأهل الاديان المختلفة على الاسلام واقنعهم انه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا و بذلوا في خدمته ما لم يبذل له العرب أنفسهم ؟

ظهور الاسلام على ما كان في جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة حقق لقراء الكتب الالهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل وتحقيق استجابة دعاء الخليل (٢: ١٢٩ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وان هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء أقوامها من بعدها فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا الى البقاء على العناد في مجاحدته فتلقوه شاكرين، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين، أوقع ذلك من الريب في قلوب مقلديهم ما حركهم الى النظر فيه، فوجدوا لطفاً ورحمة، وخيراً ونعمة، لا عقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهي القاضية في قبول المصالح والمرافق، رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلي و يلحقها بالملكوت الاعلى

ويدعوها الى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات، ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى في توفية البدن حقه، متى حسنت النية وخلصت السريرة، فاذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الالهي ينتظره متى حسنت التوبة، وكملت الاوبة — تبدت لهم سذاجة الدين عند ما قرؤا القرآن ونظروا في سيرة الطاهرين من حامليه اليهم وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل الى فهمه، وما تكفي جولة نظر في الوصول الى علمه (* فتراموا اليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه

كانت الامم تطلب عقلا في دين فوافاها، وتتطلع الى عدل في ايمان فأتاها، فما الذي يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها، والمبادرة الى رغيتها؟ كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التي رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشؤون الادنين، متى عرضت دونها شهوات الاعلين، فجاء دين يحدد الحقوق ويسوي بين جميع الطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لامير عظيم مطلق السلطان في قطر كبير وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدا فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الامير على ما كان منه، عدل يسمح ليهودي أن يخاصم

---

*) الاول كالجمع بين التثليث والتوحيد والثاني عالم الغيب غير المحال

مثل علي بن أبي طالب امام القاضي وهو من نعلم من هو ويستوقفه معه للتقاضي الى أن قضى الحق بينهما، هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذي حببه الى من كانوا أعداءه، ورد اليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه

غلب على المسلمين في كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد أن يحرجهم الجار فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ثم لا يكون الا طائفا يحل ثم يرحل فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفته من اللين والمياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له وسعي الكثير منهم في هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الاسلام في انتشاره عند حد خصوصا في الصين وفي أفريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من مال مختلفة تنزع الى الأخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه : لا سيف وراءها ولا داعي أمامها وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه، مع قليل من حركة الفكر في العلم بما شرعه، ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامي واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعقله ويسر أحكامه وعدالة شريعته، وبالجملة لان فطر البشر تطلب دينا وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها، وأقرب الى قلوبها ومشاعرها، وأدعى الى الطمأنينة في الدنيا والآخرة ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذا، والى العقول مخلصا، بدون حاجة الى دعاة ينفقون الاموال الكثيرة والاوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب

الحبائل لاسقاط النفوس فيه — هذا كان حال الاسلام في سذاجته الاولى وطهارته التي أنشأه الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها في بعض أطراف الارض الى اليوم

قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه : ان الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه و بين حياته . سبحانك هذا بهتان عظيم، ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الاخبار تواترا صحيحا لا يقبل الريبة في جملته ، وان وقع اختلاف في تفصيله، وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم ، وكفا للعدوان عنهم، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا أنهم جاوروهم وأجاروهم فكان الجوار طريق العلم بالاسلام وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه

لو كان السيف ينشر دينا فقد عمل في الرقاب للاكراه على الدين والإلزام به مهددا كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد و بلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر في شدته بعد مجيء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام في أقل

من قرن . هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لايتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون مايشاؤون تحت حمايته مع غيرة تفيض من الافئدة، وفصاحة تتدفق عن الالسنة ، وأموال تخلب ألباب المستضعفين، ان في ذلك لآيات للمستيقنين

جاءت حكمة الله في أمر هذا الدين: سلسبيل حياة نبع في القفار العربية، أبعد بلاد الله عن المدنية، فاض حتى شملها فجمع شملها فاحياها حياة شعبية ملية ، علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء في رفعتها ، وتعلو اهل الارض بمدنيتها ، زلزل هديره على لينه ماكان استحجر من الارواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها . قالوا كان لا يخلو من غلب « بالتحريك » قلنا تلك سنة الله في الخلق لا تزال المصارعة بين الحق والباطل والرشد والغي قائمة في هذا العالم الى ان يقضي الله قضاءه فيه ، اذا ساق الله ربيعا الى أرض جدبة ليحيي ميتها، وينقع غلتها ، وينمي الخصب فيها، أفينقص من قدره أن أتى في طريقه على عقبة فعلاها ، او بيت رفيع العماد فهوى به ؟

سطع الاسلام على الديار التي بلغها أهله فلم يكن بين اهل تلك الديار وبينه الا ان يسمعوا كلام الله ويفقهوه واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً وانحرفوا عن طريق الدين أزمانا فوقف وقفة القائد خذله الانصار ، وكاد يتزحزح الى ماوراءه، لكن الله بالغ أمره فانحدرت الى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الافاعيل وكانوا وثنيين

جاؤا لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث اعقابهم ان اتخذوا الاسلام دينا وحملوه الى أقوامهم فعمهم منه ماعم غيرهم: جاؤا لشقوتهم فعادوا بسعادتهم

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق من ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتي سنة جمع فيها الغربيين من الغيرة والحمية للدين مالم يسبق لهم من قبل وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة مابلغته طاقتهم وزحفوا الى ديار المسلمين وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة بإجلائهم عنها ، لم جاؤا و بماذا رجعوا ؟ ظفر رؤساء الدين في الغرب، باثارة شعوبهم ليبيدوا مايشاؤن من سكان الشرق، أو يستولي سلطان تلك الشعوب على مايعتقدون لانفسهم الحق في الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية، جاء من الملوك والامراء وذوي الثروة وعلية الناس جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ماقدروه بالملايين، استقر المقام بكثير من هؤلاء في ارض المسلمين وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها تنظر في أحوال المجاورين ، وتلتقط من أفكار المخالطين، وتنفعل بما ترى وما تسمع، فتبينت ان المبالغات التي أطاشت الاحلام، وجسمت الآلام، لم تصب مستقر الحقيقة، ثم وجدت حرية في دين، وعلما وشرعا وصنعة مع كمال في يقين، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لامن العوادي عليه ثم جمعت من

الآداب ماشاء الله وانطلقت الى بلادها، قريرة العين بما غنمته من جلادها، هذا الى ما كسبه السفار من أطراف الممالك الى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا، وأخذت الافكار من ذلك العهد تتراسل، والرغبة في العلم تتزايد بين الغربيين، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد، ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين، والاخذ على ايديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه، وحرفوا في معناه، ولم يكن بعد ذلك الا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته وجاءت في اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلا بل ذهب بعض طوائف الاصلاح في العقائد الى مايتفق مع عقيدة الاسلام الا في التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأن ماهم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى الا في صورة العبادة لاغير

ثم أخذت امم أوربا تفتك من أسرها، وتصلح من شؤونها، حتى استقامت أمور دنياها على مثل مادعا اليه الاسلام، غافلة عن قائدها، لاهية عن مرشدها، وتقررت اصول المدنية الحاضرة، التي تفاخر بها الاجيال المتأخرة ما سبقها من أهل الازمان الغابرة، هذا طل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، جاء الق... ...رم ليبيدوا، فاستفادوا وعادوا ليفيدوا، ظن الرؤساء ان في إهاجة شعوبهم بشفاء ضغنهم، وتقوية ركنهم، فباؤا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم،

وما بيناه في شأن الاسلام — و يعرفه كل من تفقه فيه — قد ظفر به كثير من اهل النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم والى الله عاقبة الامور

﴿ ايراد سهل الايراد ﴾

يقول قائلون اذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق وقال كتابه «٦: ١٥٩ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء» فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب، وفرقت بين طوائفها المذاهب؟ اذا كان الاسلام موحدا فما بال المسلمين عددوا؟ اذا كان موليا وجه العبد وجهة الذي خلق السموات والارض فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا يستطيع من دون الله خيرا ولا شرا، وكادوا يعدون ذلك فصلا من فصول التوحيد؟ اذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه الى النظر في الاكوان، واطلق له العنان يجول في ضمائرها بما يسعه الامكان، ولم يشرط عليه في ذلك سوى المحافظة على عقد الايمان، فما بالهم قنعوا باليسير، وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم، ظنا منه أنه قد يرضي الله بالجهل، واغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع؟ — ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها؟ ما بالهم بعد أن كانوا قدوة في الجد والعمل، أصبحوا امثلا في القعود والكسل؟ — ماهذا الذي ألحق المسلمين بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين

ما ابتدعوه، و بين ما دعاهم اليه فتركوه ؟ — اذا كان الاسلام في قربه من العقول والقلوب على ما بينت فما باله اليوم على رأي القوم تقصر دون الوصول اليه يد المتناول؟ اذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لا يقرؤنه الا تغنيا، و رجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم الا تظنيا؟— اذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال، فما بالهم شدوهما الى أغلال أي أغلال ؟— اذا كان قد أقام قواعد العدل، فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل في الظلم؟— اذا كان الدين في تشوف الى حرية الازقاء، فما بالهم قضوا قرونا في استعباد الاحرار؟— اذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء؟— اذا كان الاسلام يحظر الغيلة و يحرم الخديعة و يوعد على الغش بان الغاش ليس من أهله، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه؟— اذا كان قد حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن، فما هذا الذي نراه بينهم في السر والعلن، والنفس والبدن؟ — اذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم، وان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وأنهم ان لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم، وشدد في ذلك بما لم يشدد في غيره، فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق، ولا يعتصمون بصبر، ولا يتناصحون في خير ولا شر، بل ترك كل صاحبه، وألقى حبله على غاربه،

فعاشوا أفذاذا، وصاروا في أعمالهم أفرادا، لايحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه، كأنه ليس منه، كأن لم يجمعه معه صلة، ولم تضمه اليه وشيجة؟ــ ما بال الابناء، يقتلون الآباء، وما بال البنات، يعققن الامهات؟ أين وشائج الرحمة؟ أين عاطفة الرحم على القريب؟ أين الحق الذي فرض في أموال الاغنياء للفقراء، وقد أصبح الاغنياء يسلبون ما بقي في أيدي أهل البأساء؟

قبس من الاسلام أضاء الغرب كما تقول وضوءه الاعظم وشمسه الكبرى في الشرق واهله في ظلمات لايبصرون، أصح هذا في عقل، أوعهد في نقل، ألم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيئا وهم من اهل هذا الدين اول مايعلق باوهام أكثرهم ان عقائده خرافات، وقواعده واحكامه ترهات، ويجدون لذتهم في التشبه بالمستهزئين ممن سمو انفسهم احرار الافكار، وبعداء الانظار، والى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه، ووسموا انفسهم بانهم حفاظ أحكامه والقوّام على شرائعه، كيف يجافون علوم النظر ويهزؤن بها، ويرون العمل فيها عبثا في الدين والدنيا، ويفتخر الكثير منهم بجهلها كأنه في ذلك قد هجر منكرا وترفع عن دنيئة؟ فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق يستحي ان يظهر به بين الناس، ومن غرته نفسه بأنه على شيء من الدين وانه مستمسك بعقائده يرى العقل جنة، والعلم ظنة، أليس في هذا مايشهد اللهَ وملائكته والناس اجمعين على أنْ لاوفاق بين العلم والعقل وهذا الدين؟

﴿ الجواب ﴾

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال وربما كان ماجاء في الايراد قليلا من كثير وقد وصف الشيخ الغزالي رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من أهل البصر في الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ولكن قد أتيت في خاصة الدين الاسلامي بما يكفي للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن مع التدقيق في فهم معانيه وحملها على مافهمه اولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ويكفي في الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات في التاريخ على ماكتبه محققو الاسلام ومنصفو سائر الامم فذلك هو الاسلام وقد اسلفنا ان الدين هدى وعقل من أحسن في استعماله والاخذ بما أرشد اليه نال من السعادة ماوعد الله على اتباعه وقد جرب علاج الاجتماع الانساني بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهورا لا يستطيع معه الاعمى انكارا ، ولا الاصم إعراضا ، وغاية ماقيل في الايراد ان أعطى الطبيب الى المريض دواء فصح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذي كان يعمل لمعالجته وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء في بيته وهو لا يتناوله وكثير ممن يعودونه او يتشفون منه و يشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه وهو في يأس من حياته ينتظر الموت اوتبدل سنة الله في شفاء أمثاله . كلامنا اليوم في الدين الاسلامي وحاله على ما بينا أما المسلمون وقد اصبحوا بسيرهم حجة على دينهم

فلا كلام لنا فيهم الآن وسيكون الكلام عنهم في كتاب آخر ان شاء الله

﴿ التصديق بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم ﴾

بعد ان ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بينا وانه إنما يخبر عن الله تعالى فلا ريب أنه يجب تصديق خبره والايمان بما جاء به ونعني بما جاء به ما صرح به في الكتاب العزيز وما تواتر الخبر به تواترا صحيحا مستوفيا لشرائطه وهو ما اخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة في أمر محسوس ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم في جنة وعذاب في نار وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف . ويجب ان يقتصر في الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني . وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الالهي عن مشابهة المخلوقين فان ورد ما يوهم ظاهره ذلك في المتواتر وجب صرفه عن الظاهر إما بتسليم لله في العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة

أما أخبار الآحاد فانما يجب الايمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها أما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرض له شبهة في صحته وهو ليس من المتواتر فلا يطعن في ايمانه عدم التصديق به . والاصل فى جميع ذلك أن من أنكر شيئا وهو يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم حدث به أو قرره

؛د طعن فى صدق الرسالة وكذب بها ويلحق به من أهمل العلم بما تواتر
؛علم أنه من الدين بالضرورة وهوما في الكتاب وقليل من السنة فى العمل
من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه
؛هم أخبار الغيب على ما هي فى ظاهر القول وذهب بعقله الى تأويلها
بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب
وعقاب على الاعمال والعقائد بحيث لا ينقص تأويله شيئا من قيمة الوعد
والوعيد ولا ينقض شيئا من بناء الشريعة في التكليف كان مؤمنا حقا
وان كان لا يصح اتخاذه قدوة فى تأويله فان الشرائع الالهية قد نظر
فيها الى ما تبلغه طاقة العامة لا الى ما تشتهيه عقول الخاصة . والاصل في
ذلك أن الايمان هو اليقين في الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا
قيد في ذلك إلا احترام ما جاء على ألسنة الرسل

بقيت علينا مسئلتان وضعتا من هذا العلم في مكان من الاهتمام وما
هما منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه (الاولى) جواز رؤية
الله تعالى في الآخرة(والاخرى) جواز وقوع الكرامات وخوارق
العادات من غير الانبياء من الاولياء والصديقين

أما الاولى فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى الى وفاق بين المنزهين
لا مجال معه للتنازع فان القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون
على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا في
مجرى العادة بل هي رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ومثلها لا يكون الا

يبصر يختص الله به أهل الدار الآخرة أو تتغير فيه خاصته المعهودة في الحياة الدنيا وهو مالا يمكننا معرفته وإن كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر. والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها فسواء كان ذلك بالبصر الغير المعهود أو بحاسة أخرى فهو في المعنى يرجع الى قول خصومهم ولكن مني الاسلام بقوم يحبون الخلاف والله فوق ما يظنون

أما الثانية فانكر جواز وقوع الكرامات أبو اسحاق الاسفرايني من أكابر أتباع أبي الحسن الاشعري وعلى ذلك المعتزلة الا أبا الحسين البصري فقال بجواز وقوعها وعليه جمهور الاشاعرة واستدل الذاهبون الى الجواز بما جاء في الكتاب من قصة الذي عنده علم من الكتاب الواردة في خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها وقصة أصحاب الكهف. واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات وأولوا ماجاء في الآيات. أما ان ذلك يوقع الشبهة في المعجزات فليس بصحيح لان المعجزات انما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها. وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه لأن ما في قصة مريم وآصف قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه في عهد الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شؤون الله في أنبياء ذلك العهد الا قليلا. وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته في خلقه وذكرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته فليست من قبيل

ما الكلام فيه من عموم الجواز . فصار البحث في جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث في متناول هم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير وفي مكان الاعمال الصالحة وارتقاء النفوس في مقامات الكمال من العناية الآلهية وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر أما مجرد الجواز العقلي وان صدور خارق للعادة على يد غير نبي مما تتناوله القدرة الآلهية فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف فيه العقلاء وانما الذي يجب الالتفات اليه هو ان أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الاسلام فيجوز لكل مسلم باجماع الامة ان ينكر صدور أي كرامة كانت من أي ولي كان ولا يكون بانكاره هذا مخالفا لشيء من أصول الدين ولا مائلا عن سنة صحيحة ولا منحرفا عن الصراط المستقيم اللهم الا ان يكون مما صح في السنة عن الصحابة . اين هذا الاصل المجمع عليه مما يهذي به جمهور المسلمين في هذه الايام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات، أصبحت من ضروب الصناعات، يتنافس فيها الاولياء، وتتفاخر فيها هم الاصفياء، وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون

﴿ خاتمة ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

« ٢٤:٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم

وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » وقد فسر الكفر في هذه الآية بكفر النعمة « ٧٢ : ١٣ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ١٤ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ١٥ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ١٦ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ١٧ لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ١٨ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ١٩ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدا ٢٠ قل انما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا ٢١ قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ٢٢ قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ٢٣ إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا ٢٤ حتى اذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من اضعف ناصرا وأقل عددا ٢٥ قل ان أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا ٢٦ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ٢٧ الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ٢٨ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا »

صدق الله العظيم ، وبلغ رسوله الكريم ، وخسئ الشيطان الرجيم ، وحق الشكر لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم .

﴿ تمت الرسالة ﴾


Bibliotheca Alexandrina
0380147